نقاط فوق حروف الوعي

محمود صقر





اسم الكتاب: نقـــاط فوق حروف الوعي

التأليف: محمود صقر

موضوع الكتاب: ثقافة وفكر

عدد الصفحات: 224 صفحة

عدد الملازم: 14 ملزمة

مقاس الكتاب: 11 × 16.5

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2015 / 25212

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 508 - 7

التنسيق الداخلي والإخراج: إسلام الحماقي

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533

01012355714

1436 هـ
2016م



نقـــاط

. ...

فوق حروف الوعي

الإهداء

- إلى شهداء الحرية والكرامة في وطننا العربي الكبير.
- إلى نفوس حرة أبية غيبها الطغيان خلف القضبان والجدران.
- إلى أجيال يصنعها الله على عينه داخل كهف الآلام والأوجاع.
- إلى من يصنعون من عصارة الفكر، ووجع القلب، وحرقة الأعصاب كلمات تضئ الطريق.

أهدي هذا الكتاب

المقدمة

معركة الوعي هي معركة الساعة، يتجاذبها طرفان:

طرف جعل من تغييب الوعي وسيلة للسيطرة على الشعوب، وإبقائها في مرحلة الطفو، فلا هي غارقة ولا هي مُبْحرة.

لأن غرقها يحرمه من سوق العبيد، وإبحارها يحرمه من السيطرة والاستغلال.

وفي سبيل ذلك يسلط على الشعوب كل قدراته السياسية، والإعلامية، والتعليمية؛ لتظل حبيسة الإلهاء والتجهيل..

فالإلهاء يجعل تلك الشعوب كثور حلبة المصارعة، يلهيه المصارع بالمنديل الأحمر، وكلما زاد انشغاله وهياجه بالمنديل وضع المصارع سهمًا في رقبته؛ ليظل جثة منهكة فاقدة للإرادة.

والتجهيل يجعل تلك الشعوب كالثور الذي يدور في الساقية مغمض العينين في حركة دائرية، كلما أراد أن يتقدم للأمام حاصروه داخل نفس دائرة التخلف والجهل.

وعلى الطرف الآخر يأتي دور الطليعة المثقفة؛ لكشف حقيقة تلك المناديل التي تلهي الشعوب وتنهكها في حلبة صراعها مع الطغاة والمستبدين.

ويأتي دورها في رفع العصابة عن أعين الشعب، ورسم الطريق وتبديد ظلام الجهل.

وليست معركة الوعي هي معركة في المجال السياسي فقط،

ولكن ميدانها حركة الحياة في الدين والفن والثقافة والفكر.

وهدفنا أن تكون تلك المقالات المجمعة في هذا الكتاب مساهمة في معركة الوعي ضد التجهيل والإلهاء.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

■■■

أولاً: الدين والفن

الإنسان.. ذلك المخلوق العجيب

عجيب في أصل خلقته، طين وروح، أسفل سافلين وأعلى عليين، منه من هم أرقى من الملائكة، ومنه من هم أشر من الشياطين، ومنه صنف لا يقبل سوى سماع رجع صدى صوته، ليس عنده أي قابلية لسماع رأي غير رأيه، يذكر ربنا هذا الصنف من البشر الذي واجه رسول الله ﷺ بقوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ (فصلت: **5**)

وصنف يتمنى الموت بل زوال الكون؛ حتى لا يُرى للحق مكان في الأرض: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ (الأنفال: **32**)

وصنف إن رأى منك خيرًا تمنى أن يكون هذا الخير على يد غيرك: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: **31**)

وصنف يكره سماع الحق، ويطرب لسماع الباطل: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ (الزمر: **45**)

وصنف ليس عنده استعداد أن يقتنع بالحق وإن رآه بعينه أو لمسه بيده ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ (الحجر: **14-15**)

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ (الأنعام: 7)

هذه أصناف تستطيع أن تستنبط مثلها أشكالًا وألوانًا، وتعجب من تصرفاتهم كتعجب «أبو العلاء المعري» حين وجد من معاصريه من يرمون غيرهم بكل نقيصة موجودة فيهم: فأبخل الناس «مادر» يرمي أجود الناس «حاتم الطائي» بالبخل، و«باقل» الذي لا يقدر على صياغة عبارتين يرمي أشهر خطباء العرب» قس بن ساعدة» بالفهاهة، فصاغ ذلك شعرًا بقوله:

إذا وَصَـفَ الطائيَّ بالبُخْلِ مادِرٌ	**وعَـيّرَ قُـسًّا بـالفَهاهةِ بـاقِل**
وقـال السُّهى للشمس أنْـتِ خَفِيّةٌ	**وقال الدّجى يا صُبْحُ لونُكَ حائل**
وطـاوَلَتِ الأرضُ السّماءَ سَفاهَةً	**وفاخَرَتِ الشُّهْبُ الحَصَى والجَنادل**
فـيا مـوْتُ زُرْ إنّ الحياةَ ذَميمَةٌ	**ويـا نَفْسُ جِـدّي إنّ دهـرَكِ هازِل**

لا تعجب يا عزيزي إن قابلت هذه الأصناف في مسيرتك في الحياة، وأتصور أنك وأنت تقرأ هذه الأصناف كنت تسقطها على بعض من تعرف، لكن الأهم من ذلك أن تعرض نفسك على هذه الصفات، فإن وجدت خيرًا فاحمد الله، وإن وجدت غير ذلك فسارع بعلاج نفسك، فلن ينفعك غدًا إلا أن تأتي الله بقلب سليم.

■■■

مملكتنا الأرض والسماء معًا

لأن الإنسان بحكم خلقه أرض وسماء، طين وروح، فكل تجارب البشرية في إيجاد مملكة الإنسان على الأرض مقطوعة الصلة بالسماء، فشلت، وكل تجارب نزع الإنسان من مملكة الأرض انتظارًا لمملكة السماء، فشلت.

نحن أمام نظرتين للحياة غير قابلتين للتطبيق:

الأولى: مثلتها اليهودية التي لم تتحدث توراتها عن السماء، لا جنة، ولا نار، ولا خلود. ومن ورائها جاءت الشيوعية تبشر الناس بجنة الأرض بشرط القطيعة مع السماء، فحرمت الناس من جنة السماء ولم تحقق لهم جنة الأرض.

في حوار فلسفي عميق صوَّر «توفيق الحكيم» هذا الصراع الذي عاشه الغربي المنقطع عن السماء في حوار بين» محسن» الشخصية الرئيسية في رواية «عصفور من الشرق» مع صديقه الروسي «إيفان»، ننقله بمعناه:

«حيث يقول «إيفان» لمحسن: محظوظون أنتم أيها الشرقيون بأنبيائكم، جعلوا أساس التوزيع بين الناس الأرض والسماء معًا، فمن حُرم الحظ في جنة الأرض، فحقه محفوظ في جنة السماء. أما في الغرب فنبينا الجديد «ماركس» ومعه إنجيله الأرضي «رأس المال» أراد أن يقسم الأرض وحدها بين الناس، وقطع صلتهم بالسماء، فماذا حدث؟

أمسك الناس بعضهم برقاب بعض، ووقعت المجزرة بين الطبقات تهافتًا على نصيبهم من الأرض، فخسروا الأرض ولم يربحوا السماء، وهذا سر البلاء والشقاء.

والثانية: مثلتها المسيحية؛ لتبشر الناس بمملكة السماء على حساب مملكة الأرض.

دين يدع ما لقيصر لقيصر، دين يقدس الفقر ويدعوا إليه، دين يمنع رد الاعتداء ودفع الظلم.

دين لم يتقبل فكرة أن يظل الإنسان الكامل إنسانًا، فادَّعوا الألوهية لسيدنا» عيسى»، وهذا الزعم المتعلق بالإنسان الإله- على حد تعبير علي عزت بيجوفيتش في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب- اعتراف صامت بأن المسيحية الخالصة غير ممكنة في حياة الإنسان الواقعية.

وفي هذا السياق أيضًا نفهم قول الفيلسوف الألماني «نيتشة»: «آخر مسيحي تم صلبه على الصليب»!

بين هذه الأديان والمذاهب، ضاع الإنسان بين مملكة الأرض ومملكة السماء، ثم جاء الإسلام: دين الفطرة، دين الإنسان- كل الإنسان-، يجمع بين مملكتي الأرض والسماء.

سَيْر في مناكب الأرض ومسارعة إلى جنة السماء، زينة للثوب وطهارة للبدن قبل العروج إلى السماء بالصلاة.

دين يظل إنسانه الكامل ﷺ إنسانًا، وتظل سيرته وسنته هي التطبيق العملي لرسالته.

دين يجعل أرقى مدارج الكمال الإنساني لأتباعه أن يصير الإنسان: خليفة الله في الأرض.

أي يحقق ثنائية: [الله- الأرض].

هذا الدين العظيم، إن فصلت أرضه عن سمائه- كما يريد الجهلاء- أفرغته من محتواه، وأفقدته معناه.

دين لا يمكن فصل: عقيدته عن شريعته، ورحمته عن عدله، وعفوه عن قصاصه، وثقافته عن حضارته، ومصحفه عن سيفه، ودعوته عن جهاده، وحريته عن قيوده، سمائه عن أرضه.........، .

ابحث أيها الإنسان كما شئت، فكر كما شئت، جرب ما شئت، سر في دروب التيه حيث شئت.. لن تجد أبدًا أسمى ولا أعظم ولا أنفع لقيادة البشرية غير دين الإسلام.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ (آل عمران: **19**).

■■■

الإسلام والإنسان.. علاقة خاصة

العقل الأوروبي يصور العلاقة بين الدين والإنسان على أنها علاقة صراع.

صراع بين عالم الآلهة وعالم الناس، صراع ينبغي أن يختار الإنسان فيه: إما الدين وإما العلم، إما الدين وإما الحرية، إما الدين وإما الدنيا........، .

هكذا تشكل العقل الأوروبي وارث الحضارة اليونانية والرومانية، التي أسست عبر أساطيرها لهذا الصراع بين عالم الآلهة وعالم الناس، صراع حاولت فيها الآلهة حرمان الإنسان من العلم ومن أسرار الطبيعة؛ حتى يظل تحت سيطرة الآلهة، صراع- حسب الأسطورة - دفع ثمنه «بروميثيوس» حين خطف سر النار من الآلهة وأهداه إلى الإنسان، فكان جزاؤه القيد والحبس، وتسليط الطيور الجارحة لتنهشه حيًّا.

تم إزكاء علاقة الصراع في العقل الأوروبي من خلال ممارسات الكنيسة في العصور الوسطى، حيث تحالفت مع الملكية والإقطاع ضد المحرومين، واحتكرت تفسير العلم وحاربت العلماء، بل باعت للمحرومين الجنة مقابل صكوك الغفران.

وحسم الأوروبي الصراع بالانتصار للعلمانية وتنحية الدين - المعادي للإنسان- تمامًا عن الحياة وحصره داخل الكنائس.

هذه كانت الظروف الموضوعية لنشأة العلمانية وانتصارها على الدين.

أين هذا من الإسلام الذي ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: **31**) وبشرف العلم، وبشرف نفخة الروح أسجد الله العالم العلوي للإنسان.

دين جعل الإنسان هو المخلوق الوحيد المؤتمن على حمل أمانة الله، وعلى الخلافة لعمارة الأرض.

دين جعل العمل في الدنيا والعمل للآخرة صنوان لا يفترقان:

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ (القصص: **77**).

أين هذا من الإسلام الذي كرم بني آدم فقط لمجرد أنهم بنو آدم، بل أسس العلاقة بين البشر على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم وألوانهم على التعارف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ (الحجرات: **13**).

فليس في الإسلام طبقات: براهمة ومنبوذون، وليس له شعبان: مختار وأمَمِيُّون، وليس له برنامجان: واحد لسلك الكهنوت وآخر لعموم الناس.

إنه دين الإنسان- كل الإنسان- إنه إعلان عام لمبدأ العدل والمساواة.

إنه دين الإنسان بكل ما تحمله الكلمة من علاقة حميمية بين الإنسان وبين الله.

حتى دور العبادة التي تسمى في غيره من الأديان معابد أو بيت الرب- بشكل أكثر تعبيرًا-، في هذا الدين يسمى أكبر دار عبادة بـ «بيت الناس» ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: **96**).

دين لم يكتف بإضفاء القداسة على الإنسان- كل الإنسان- بل أضفى قداسته على الأرض التي يطؤها الإنسان- كل الأرض- (وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا).

دين يبدأ كتابه المقدس باسم الله وينتهي بـ «ٱلنَّاسِ»، دين لا واسطة فيه بين الله وبين الناس؛ لأنه قريب من الناس، دين يتسمى ربه وملكه وإلهه بـ:

«رَبِّ ٱلنَّاسِ»..

«مَلِكِ ٱلنَّاسِ»..

«إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ»..

ويا ليت قومي يعلمون.

روحي تحن إلى الرسول

يا ابن آدم، يا أكرم خلق الله، يا قبضة من تراب، يا نفخة من روح الإله الوهاب، أنت حائر بين أعلى عليين وأسفل سافلين.

جسد يحن إلى الطين، يجذب إلى أسفل سافلين، وروح تحن للطواف بك حول عرش رب العالمين.

يا ابن آدم، لو فككت روحك من أسر الطين والشهوات؛ لطافت بك في دروب السماء، ولسافرت بك إلى بلاد الأفراح، حيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ربما صرتُ (عليًّا) وصحت صيحة اليقين: (لو كشف عني الحجاب ما ازددت يقينًا)، وربما صرتُ (حارثة):(وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أرى أهل الجنة في الجنة يُنعّمون، وأهل النار في النار يُعذّبون)

فيأتيك هاتف الرسول: (عرفتَ؛ فالزم).

يا إنسان: ميلاد روحك مخاض، والمخاض ألم، والألم إحساس وشعور.

بالإحساس والشعور أهرع إلى جذع النخلة، عُضَّ على أصل الشجرة، اقبض على الجمرة، تحمّل آلام السير على طريق الحق ولو سرت فيه وحدك.

قليل من الصبر على آلام المخاض، وسيولد (عيسى) من داخلك.

سينسيك فرح الميلاد آلام المخاض، ستعيش في إسراء ومعراج، وسيحن (عيساك) إلى الإتمام بمحمد صلى الله عليه وسلم، ستطوف بك

روحك حول معاني الكمال والجمال والجلال في صفات خير الأنام، الرحمة المهداة، والنعمة المزجاة، أسخى الناس يدًا، وأرقّهم قلبًا، وأكثرهم حياءً، وأشدهم بأسًا، وأقواهم شكيمة، وأمضاهم عزيمة، رفع لواء التوحيد وجاهد تحت رايته، فأعز الله به الدين، ونصر به المظلومين.

اللهم كما آمنا به ولم نره، فاجعلنا في الدنيا ممن يحيون دينه، ويسيرون على سبيله، واجمعنا تحت لوائه في الآخرة يا رب العالمين.

فيا رب بالخِلِّ الحبيب نبينا = رسولك وهو السيد المتواضع

أنلنا مع الأحباب رؤيتك التي =إليها قلوب الأولياء تسارع

فبابك مقصود وفضلك زائد =وَجودُك موجود وعفوك واسع

■■■

سأعود من المعراج

لو عُرج بك إلى السماء، وتجولت في دروبها، ووصلت إلى سدرة المنتهى، فكنت قاب قوسين أو أدنى.

هل تعود إلى الأرض ثانية؟!!، أم تتمسح حول العرش، وتطلب البقاء هناك، حيث الصفاء والنقاء، والملائكة والنور؟

وهل هذا سؤال؟!.. كيف نعود من هذا العالم الجميل إلى دنيا الناس!

إذا كنت أنا العبد العاصي حين لازمت واحدًا من أهل المعراج أحسست هذا العالم الجميل وتمنيت ألا أعود.

ليلة في حياتي لن أنساها، تلك الليلة الجميلة التي لازمت فيها "ابن الفارض" [شاعر العشق الإلهي] في ديوانه، لم يغمض لي جفن حتى قرأته لمنتصفه، عشت معه (بين مُعتركِ الأحداق والمُهجِ)، شربت معه (..على ذكر الحبيب مُدامةٌ سكِرنا بها، من قبل أن يُخلق الكرْمُ)، احتبست معه أنفاسي في توسله (ولا تجعل جوابي لن تري)، ثم غلبني النعاس فبت ما بقي من الليل بين النائم واليقظان أعيش معه في عالم الأحلام، تمنيت أن تظل روحي في معراجها.

ولكن... أشرق الصباح وبدأت دنيا الناس، وانغمست فيها... وهكذا الحياة.

الاكتفاء بحياة المعراج وحدها على جمالها وصفائها هروب من أداء رسالة الإنسان.

والحياة.. وسط الناس وحدها بلا معراج عذاب، وألم، وشقاء.

هذه هي الثنائية العظيمة والفهم الراقي لدور الإنسان في الوجود التي جعلت النبي ﷺ يعود من معراجه ولا يتمسح حول العرش طلبًا للبقاء؛ ليعود لرسالته في دنيا الناس حيث أبو جهل وأبو لهب وحمالة الحطب.

فهنا مجال الرسالة، وهنا أداء الأمانة.

هذه الثنائية هي التي جعلت "موسى"- الرسول- (عليه السلام) أعظم قدرًا من "الخضر" في معراجه، وجعلت "سليمان"- الرسول- (عليه السلام) أعظم قدرًا ممن عنده "علم من الكتاب" في معراجه.

وهكذا أنا وأنت.

زادنا هناك..ورسالتنا هنا.

زادنا: معراجنا، سياحة في الملكوت، رفقة مع الملائكة، شوق إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

ورسالتنا: هنا، في دنيا الناس.

حيث أبو جهل وأبو لهب وحمالة الحطب، قلوب كالحجارة أو أشد قسوة، وحواس مطمورة في أجسام كالقبور وما أنت بمسمع بمن في القبور.

وغيرهم أناس: أرق من النسيم إذا سرى، وأصفى من ماء المزن إذا جرى، يباهي الله بهم الملائكة، وبين هؤلاء وأولئك، الكثرة من الناس، مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ينتظرون منك الكلمة الطيبة، والابتسامة الرقيقة، واللمسة الحانية.

ينتظرون النموذج في السلوك الراقي، والصدق والأمانة، والثبات والرجولة، وقولة الحق في وجه الظالمين.

إنهم ينتظرونك أنت..فعد إليهم يا "يونس"، فبرغم أنهم آذوك، وبكل نقيصة رموك، ولكن... هاهنا رسالتك، وتلك أمانتك.

فلا تذهب (مغاضبًا) وتفر من أداء الرسالة، فربما بثباتك أنت وضراعتك أنت: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

نخرج جميعًا من ظلمة بطن الحوت.

نظرة إلى باطن الكهف

هذه الحياة كهف، وأنا وأنت نرى بأعيننا ظاهر الكهف، أما الباطن فلا يراه إلا من يستطيع مع الله صبرًا.

صور ظاهرة تَمُرُّ أمام أعيننا، تُخفي باطنًا لا نعلمه.

سفينة تُخرق؛ لينجوا أهلها!

غلام يُقتل؛ رحمةً بوالديه!

جدار يُقام؛ ليحفظ كنز أيتام في قرية اللئام!

هلاك ظاهر في باطنه نجاة، قسوة في باطنها رحمة، جدار في باطنه كنز!!

هذه هي الحياة.. فمن يستطيع لهذا الفهم صبرًا؟!

أغمض عينيك، اسرح بخيالك، استحضر ماضيك، كم مشهد مرَّ في حياتك رأيت ظاهره مُرًّا، وأراك الله مع الزمن رحمته المخفية فيه؟.

أغمض عينيك مرة أخرى، أُخرج من حدود ذاتك، تأمل حال أمتِك، أمتُك خرجت للعير، وأراد الله لها النفير.

أرادت تغييرًا سريعًا وسهلًا، أوشكت أن تمسك الحلم بأيديها، وأراد الله لها طريقًا شاقًّا لأمر يعلمه، ويهيئ له الأمة.

ثمن غال تدفعه أمةٌ تغلغل الفساد فيها حتى نخر العظام، وطغيانٌ تغلغل أثره إلى داخل النفوس فأفسدها.

مشاهد ظاهرها: دماء تسيل، سجن، وتشريد، ظلم، وطغيان، ظلام في ظلام، ولكن.. هل نظرت إلى باطن الكهف؟

في باطن الكهف.. ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ (الكهف: **16**)، في باطن الكهف.. ﴿فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ (الكهف: **13**).

فتية يهيئهم ربهم؛ لقيادة أمة، وحمل رسالة.

فتية يحملون إيمانًا لا يتزعزع، وعملًا لا يتوقف، وثقةً بالله لا تضعف.

فتية لا تبالي بسجن، ولا رصاص، ولا تشريد، أسعد أيامها يوم تلقى الله شهيدة في سبيل رفعة أوطانها.

أمارات وعلامات من داخل الكهف لجيل جديد صنعه الله على عينه.

ينشغل أهل الظاهر بأعدادهم: خمسة، سبعة، تسعة.. ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ (الكهف: **18**)، وكيف يُقاس بعدد من ارتفع فوق ضعف المخلوق فصار عملًا من أعمال الخالق؟!

أعود إلى نفسي، ألتمس طريقي بين ظاهر الكهف وباطنه، فأجد في وسط الكهف...

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ (الكهف: **28**).

وفي آخر الكهف...

﴿.............. فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ (الكهف: **110**).

■■■

الشهادة والشهيد

من قال إن الشهادة هي انتصار على عدو في معركة؟

من قال إن الشهيد هو من استجمع عدته ليدخل معركة متكافئة؟

ألم يربِّنا القرآن على قصة مؤمن آل ياسين ومؤمن آل فرعون؟

إن الشهادة هي انتصار الإنسان على صفات الضعف والخوف.

إن الشهادة هي اختيار الموت الشريف بديلًا عن الحياة الذليلة.

إن الشهادة هي شهادة على أن للحياة معنى آخر في النفوس الحية الأبيَّة.

إن الشهادة ليست اختيارًا لنوع الموت ووقته، قد تكون في ساحة الشهادة، وقد تكون في حادث مروري أثناء عودتك من أداء الشهادة، وقد تكون على الفراش بعد عمر تقضيه شاهدًا مشهودًا في ساحات شهادة الحق.

إن الشهادة حلم وأمنية في قلوب حية وضمائر يقظة، يختار الله لها أهلًا، وإن ماتوا على فُرُشهم.

إن الشهادة هي شهادة للتاريخ أن في الأمة أحرارًا رفضوا قبول دولة الظلم والطغيان التي سخرت السياسة والاقتصاد والإعلام والفن والمؤسسات الدينية؛ لتقدم الإنسان الحر ضحية على مذبح مطامع الفسدة والقتلة والمجرمين.

إن الشهادة هي حضور دائم وواجب في ساحة المعركة التاريخية بين الحق والباطل.

وأي باطل أشد من بطش يريد أن يغتال حلم أمة في حياة حرة كريمة؟

وأي باطل أشد من بطش يريد أن يطفئ نور الأمل لجيل من الشباب صنع واحدة من أعظم ثورات التاريخ؟

وأي باطل أشد من إسالة الدماء، والاعتداء على حرمة المساجد حصارًا وحرقًا وتقتيلًا لمن فيها؟

إن أعظم منحة أطلت علينا من رحم المحنة التي نعيشها هي إحياء معنى وقيمة الشهادة.

إن هذه الملايين في الشوارع- التي يريد إعلام الباطل حجبها- هم شهود العصر على حياة الأمة ورفضها للخضوع والذلة.

والشهداء الذين اختارهم الله من بينهم هم قلب الأمة النابض، يضخون من دمهم المهراق في شرايين المجتمع معاني العزة والكرامة، ويعيدون للناس الثقة في القيم والمثل العليا التي بها حياة المجتمع.

ودورنا اليوم أن نزيد هذا المعنى وهجًا ووضوحًا، وإذكاء روحه لتحي أمة لا حياة لها وسط الأمم إلا بإحياء معنى الشهادة.

وقسمًا لن تضيع هذه الدماء هدرًا، وستكون وقودًا لأمة مكانها الشهادة على الناس كافة.

سلام على شهداء رفرفت أرواحهم في ظلمة سماء الوطن، فصاروا نجومًا نهتدي بها في طريق العزة والكرامة.

■■■

هل هي حرب ضد الإسلام؟

لماذا التلاعب بعواطف الناس، والتجارة بشعار «الحرب ضد الإسلام»؟

هل منعك أحد من الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج؟

هل منعك أحد من أن تتخلق بأفضل أخلاق الإسلام؟

بل هل منعك أحد من فعل الخير؟!

هذه أسئلة مشروعة، ولكن ليس هذا هو الإسلام الذي يحاربونه؛ لأنه لو كان ما ذكرناه من عبادة وفعل للخير هي فقط الإسلام، فهذا إسلام وديع منطوٍي داخل صدور المؤمنين به.

أما أن يكون الإسلام: فنًّا وثقافة، اقتصادًا وسياسة، خلقًا وقيادة، نضالًا وحرية، جيشًا وفكرة، فهذا هو الإسلام الذي يحاربونه.

الإسلام الذي يمثل مشروعًا حضاريًّا نهضويًّا للأمة، ينقلها من طور التبعية الذليلة التي جعلتنا مجرد سوقٍ للغرب يخضع لوصايته على سياستنا وثقافتنا واقتصادنا؛ إلى طور النِّدِّيَّة، ومن الندية إلى المنافسة، ومن المنافسة إلى الأستاذية.

الإسلام الذي ينطلق من الفرد إلى المجتمع، ومن الجامع إلى الجامعة، ومن التعاليم النظرية إلى الأحكام العملية.

الإسلام الذي يشكل هويتنا، ويحقق ذاتيتنا وتفردنا.

الإسلام الذي يعيد لهذه الأمة دورها التاريخي، ويعيد لها ثقتها بنفسها بصفتها تحمل أعظم رسالة، وأفضل منهج، وأكمل شريعة.

باختصار هم يحاربون الإسلام الذي يقيم نظام دولة تكون ممثلة للفكرة، ومبلغة للرسالة، ومجاهدة في سبيل تحقيق الخير والعدالة.

ولذلك أقولها بكل ثقة وبين قوسين (الحرب على الديمقراطية في بلادنا هي حرب على الإسلام)

لماذا؟؛ لأن الديمقراطية ستضمن اختيارًا حرًّا ونزيهًا لشعب لن يتخلى عن هويته الإسلامية مهما فعلوا.

وتأمل قبل الختام تصريح «نبيل فهمي» وزير خارجية حكومة الانقلاب: «لو كانت المشكلة هي أداء مرسي لصبرنا عليه ثلاث أو أربع سنوات، ولكن المشكلة أنه أراد تغيير وجه مصر إلى الوجه الإسلامي».

نعود إلى السؤال: «هل هي حرب ضد الإسلام؟»

والإجابة: نعم، ولا.

حسبما يكون تصورك للإسلام؛ ستختار الإجابة.

■■■

جيش التوحيد في المشعر الحرام

ساحة عجيبة تجمع جيشًا عالميًّا من مختلف الأجناس واللغات.

وما الذي جمعه؟

وحدة الغاية والهدف والشعور

في هذا المكان يبيت الجيش ليلته، على ضوء قمر ليلة العاشر ونجومه الزاهرة، يفترش الأرض، يلتحف السماء، يلبس كفنًا، ينشغل بالتأمل والذكر والدعاء، يتجرد من كل علائق الدنيا، يتهيأ لمعركة سيخوضها في الصباح ضد الشيطان وحزبه، يجمع من هذه الساحة أسلحته.

جيش يعرف عدوه جيدًا، يحدد هدفًا لا يتجاوزه، لا يغيب عنه أبدًا أنه في أرض جاء لينشر فيها السلام.. سلام شامل يعم الإنسان والحيوان والطير والنبات.

أي تجاوز للهدف المحدد والتعدي على حرمات الله يفسد عمل الجيش.!!

إنهم ترجمة حية لعظمة دين، بسط أمنه وقداسته على كل الأرض: (وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا).

جيش انتقل من نهار عرفات رمز المعرفة والعلم، إلى ليل المشعر الحرام رمز الشعور والوعي، **فلا فائدة لمعرفة وعلم بغير شعور ووعي**.

مع حركة الشمس تنضبط حركة الجيش، إنه ينتظر ساعة الصفر للتحرك مع إشراقة شمس العاشر.

في هذا اليوم تبدأ المعركة ضد الشيطان وحزبه، تتوقف التلبية ليبدأ التكبير إيذانًا بالانتقال من مرحلة الولاء لله إلى مرحلة العداء والبراءة من الشيطان وحزبه.

في نفس ذات اليوم الذي تبدأ فيه المعركة، سيكون الاحتفال بعيد النصر!

إنها مدرسة الإسلام: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (المائدة: **23**)

إنها الثقة في الله، والأمل الملازم للعمل.

أمةٌ، النصر تحت أقدامها، فقط ينتظر منها أن تحدد هدفها، وتعد ما استطاعت من قوة، وتعقد العزم وتتخذ القرار، وهي رسالة أيضًا ألا تغتر بالنصر وتتخلى عن سلاحك وتخلد إلى الراحة.

إنها رسالة الحج لأمة الإسلام:

لا نهضة لها إلا بالطواف، والسعي، وعرفات، والمشعر الحرام، والأضحية، والرجم.

الطواف: وحدة الغاية والهدف، **والسعي**: جدية وعمل، **وعرفات**: علم ومعرفة، **والمشعر الحرام**: شعور ووعي، **والأضحية**: فداء وتضحية، **والرجم**: عزم وإعداد.

هذا هو الطريق، وتلك هي الرسالة، وحدة هدف، جدية وعمل، علم ومعرفة، شعور ووعي، فداء وتضحية، عزم وإعداد.

■■■

في رحاب مدرسة الحج

لكل عبادة في الإسلام أسرارها، والحج فريضة فريدة تجمع أسرارًا كثيرة سنحاول الغوص في بعض أسراره:

1. **معادلة مهمة التفت إليها جيدًا:**

عرفات= المعرفة والعلم.

المشعر الحرام= الشعور والوعي.

السعي والأضحية= عمل وتضحية.

الطواف حول الكعبة= التفاف الأمة حول هدف واحد.

(معرفة + شعور + عمل وتضحية + هدف مشترك = نهضة أمة)

والعامل المشترك للمعادلة (مركب المعادلة): لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك.

حاول أن تزيل أي عامل من عوامل المعادلة:

ما قيمة المعرفة والعلم بلا شعور ووعي؟، وما قيمتهما بدون عمل وتضحية؟، وما قيمة كل هذا بلا عمل جماعي لهدف مشترك؟

2. **العيد يأتي في منتصف المناسك**

هو عيد الفداء والنصر، ولكن مازالت المعركة مستمرة بعده، بعده يتسلح الجنود بالحصى لرمي الجمرات.

إياك أن تخلد للراحة وتلقي سلاحك بعد الاحتفال بالنصر، فالجيش المنهزم مازال يتحين فرصة ضعفك، إياك أن تنخدع مرة أخرى.

3. إسماعيل كان أكبر علائق الدنيا بالنسبة لإبراهيم، ولأنه خليل الرحمن؛ أراد الله أن يصفيه من علائق الدنيا قبل لقائه، فيا ترى من تختار ليكون إسماعيلًا لك؟ومن ستختار في الامتحان:

إسماعيل أم الله؟

4. الله رؤوف بعباده، يمتحنك ونداء النجاة فوق رأسك، قريب من أذنيك، فقط ينتظر منك التسليم له، والطاعة لأمره، وسيأتيك النداء.

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (إبراهيم: **104 - 107**)

إذا كان سيدنا إبراهيم مازال ربه يمتحنه وهو في هذه السن وبعد كل هذا الجهاد، إذًا ليس هناك كبير على الامتحان.

كن حذرًا، تلمس جوانب ضعفك، لُذ بربك، لا تتكبر على الخلق، لا تخلد إلى الراحة، ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (**الحجر: 99**).

5. **السعي بين الصفا والمروة**

أنت مأمور بالسعي مع إخلاص النية وشرعية الوسيلة، أما النتيجة: متى؟، وأين؟، وكيف؟، فهي بيد الله وحده، قد تكون بعد شوط، أو سبعة، أو أكثر، وقد يكون الفرج تحت قدميك وأنت لا تدري!

وقد يكون الفرج نبع خير ينهل منه أجيال وأجيال من بعدك.

■■■

خواطر معتمر

الكعبة، الصفا، المروة، زمزم، حجر إسماعيل، الحجر الأسود

شواهد ناطقة على أعظم قصة في التاريخ البشري، قصة التوحيد النقي الصافي، القصة التي عبَّدت الطريق أمام الأنبياء والرسل والأولياء الصالحين، هنا قمة التضحية والفداء، والصبر على البلاء، بطلها رجل تجاوز المائة عام.

يااه، بعد كل هذا العمر يا إبراهيم مازلت في محل اختبار، وابتلاء من ربك؟!

يا بطل التوحيد مذ كنت فتًى صغيرًا، بعد كل الانتصارات في معارك التوحيد، بعد مواجهة الجهل والشرك والخرافة، بعد تكسير الأصنام في معقل عبادتها، بعد مواجهة الظلم والطغيان وزلزلة عرش النمرود، بعد كل هذه المسيرة الحافلة، مازال في العمر بقية للاختبار؟!

وفي من؟ في ولدك!!وكيف؟ بذبحه!! ومتى؟ في آخر العمر!

والبدائل؟الله، إسماعيل!

اخترْ يا إبراهيم، الله ورسالة التوحيد التي كنت بطلها، أم إسماعيل!

اختر أن تكون أبًا لإسماعيل أو تكون أبًا للأنبياء، ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾.

اختر استكمال الطريق حتى الممات، الطريق الذي اختاره دون أن يتطرق إلى قلبه ذرة من شك. طريق الإيمان الذي ضحى في سبيله بكل رغباته

الإنسانية؛ ليصل إلى نهاية الطريق بنجاح ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل: **120**).

أما أنت يا هاجر فعلمينا أنه بالتوكل لا بالسعي، وبالسعي لا بالتواكل، يتفجر ينبوع الخير «زمزم»، هدية الله من هاجر المرأة المسئولة المتوكلة المؤمنة إلى البشر إلى قيام الساعة،

أما أنت يا إسماعيل، أيها المؤمن المطيع، يا من سلمت رقبتك فداءً لله وتصديقًا برؤيا أبيك، فستكون أنت أيها الطاهر حاملًا لأطهر نطفة في الوجود، ستنتقل نطفتك في الأصلاب الطاهرة جيلًا بعد جيل؛ ليخرج منها درة تاج البشرية، ومعلمها، وهاديها، وخاتم السلالة الطاهرة من الأنبياء.

وأنت يا سيدي يا رسول الله، لولاك.. من كان سيدي سيحيي معالم اندثرت، ويرفع راية توحيد انتكست، ويحيي ذكرى أسرة في عالم الناس نُسيت.

أنت سيدي من اصطفاه ربه ليكون صاحب هذا المقام:﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: **68**).

أما نحن أمتك يا رسول الله، فنسأل الله أن نكون بحق مشمولون تحت مظلة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ ﴾.

■■■

دروس ثورية من الحج

نحن هنا أمام شعيرة تؤسس لتغيير جذري في حياة مقيم الشعيرة، فلا الوطن موطنه، ولا اللباس هو ما اعتاد عليه، ولا مواعيد النوم والاستيقاظ، ولا البيت ولا السرير ولا الزوجة ولا الأولاد، أنت هنا تعيش في العراء، وتنام على الأرض، وتخالط من لم يسبق لك معرفته، إنه يجبرك حتى على تغيير أنفاسك، فالتطيب بالعطر هنا ممنوع.!!

إنه ابتداءً ثورة على المألوف من عادات الحياة الرتيبة التي تأسر الإنسان في ثوبها، وتقيده في إطارها.

أنت هنا في مكان غير تقليدي بالمرة لأداء العبادة، فأنت هنا لست في مسجد ولا معبد ولا دير ولا كنيسة.

أنت هنا في ساحة جهاد، وأنت فيها قطرة في بحر، ولا قيمة لك سوى أنك قطرة في هذا البحر، فإن تضخمت ذاتك، وغلبتك حظوظ نفسك، وشعرت أنك قطرة الندى الجميلة على ورق الورد، فستمحوك شمس الصباح، وستكمل قطرات البحر مسيرها، وتتركك تتبخر وحدك.

أنت جندي في جيش بلا قائد، فكل جنوده قادة، فالكل هنا متشابهون بلا تمايز في الرتب؛ لأن القيادة هنا هي وحدة الهدف ووضوح الغاية والقصد، فالكل يتحرك وفق تعليمات واضحة صريحة دقيقة، الكل يعرفها قبل البدء في الحركة.

هذا الجيش يتزود بالزاد الروحي نهارًا في عرفات، وليلًا في المشعر الحرام، ينتظر شروق الشمس لتبدأ ساعة الصفر المحددة لمواجهة العدو- الشيطان- حيث التحرك لرمي الجمرات.

وقبل البدء في المعركة يحتفل الجيش بالعيد، وكأنه يحتفل بالنصر قبل دخول المعركة، وياله من مغزى ومعنى يتسق مع فلسفة النصر والهزيمة في الإسلام، فالنصر يتحقق بمجرد الإرادة والاستعداد-وفق الوسع- لمواجهة الباطل ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ ...﴾ (المائدة: **23**)، أوبتعبير «تولستوي» في روايته الحرب والسلام:(إن المعركة لا يكسبها دائمًا إلا الذي وطن النفس علي كسبها، إن الانتصار لا يتوقف على القائد ولكنه يتقرر عندما يصيح أول جندي: «لقد خسرنا»، أو عندما يهتف:«لقد انتصرنا»..).

وبعد الاحتفال بالعيد تبدأ معركة رمي الجمرات؛ لتذكرك بدرس لاينبغي أن تنساه: لا تترك سلاحك في غمرة الاحتفال بالعيد، فعدوك لن يتبخر، وجيش الباطل يجمع فلوله المنهزمة للمعركة القادمة، كن يقظًا وحذرًا، لا تترك حالتك الثورية حتى يتحقق الهدف، ويعم السلام، الأرض الحرام.

كن جندي عقيدة منضبطًا بأخلاق قدسية المعركة التي تخوضها، فأي تجاوز عن العدو المحدد والهدف المرسوم يحبط العمل، فلا مكان هنا لرفث ولا فسوق ولا جدال، لا مكان هنا لإيذاء حيوان أو نبات، أنت هنا في أرض السلام.

أنت هنا يا إنسان تقوم بأداء دور عجيب غريب لإنسان وقف منفردًا يواجه الباطل..، باطل الشرك بتحطيم الأصنام في معقلها، وباطل الظلم والطغيان واستعباد الإنسان بمواجهة النمرود، وباطل الخرافة والجهل وغياب الوعي

بمجادلاته مع قومه.

أنت هنا «إبراهيم»... الرجل الأمة، الذي حطم الأصنام، واقتحم النيران، وواجه النمرود، الرجل الذي عبّد الطريق لرسالة التوحيد، لطريق الأنبياء، لتحرير الإنسان.

هذه هي رسالة شعيرة من شعائر الإسلام، وهذا هو الإسلام.. رسالة تحرير الإنسان، تحريره من العبودية لغير الله...، تحريره من الاستعباد، والاستبداد، والاستغلال، والاستغفال.

إن دينًا هذه رسالته حقيق أن يقف في طريقه أحفاد الشيطان من الطغاة، والمستبدين، والمستغلين، والممتصين لدماء الشعوب، وبرغم أنهم يستفرغون كل الجهد لمحوه إن أرادوا، أو تفريغه من محتواه بأيدي أذنابهم من بني جلدتنا، أو حرفه عن مساره بما زرعوه من داعش وفروعها المنحرفة، فكل ما في وسعهم هو فقط عرقلة مسيرة تغيير بدأت، وراية حق ارتفعت، وحناجر هتفت:

لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.

■■■

إبداعات الفن الإسلامي

(1) تعريف الإبداع

الإبداع من المعاني التي تم اختزالها وابتذالها، بما يدعونا للعودة لمعنى الإبداع.

ولنكن مبدعين في تعريف الإبداع، فلن نلجأ إلى التعريفات الجاهزة، ولكن لنعد إلى الإبداع كحالة إنسانية يحتاجها الإنسان في أمرين أساسيين:

الأمر الأول: تلبية حاجة الإنسان في أن يرى الوجود جميلًا، وينبثق عن تلك الحاجة، الإبداع في مجال الفكر، والفن، والفلسفة، وسائر العلوم الإنسانية، .....

والأمر الثاني: هو تلبية حاجة الإنسان في أن يتحدى قوانين الطبيعة، ويطوعها لتلبية حاجاته، والوصول إلى رفاهيته.

وينبثق عن تلك الحاجة، الإبداع في مجال الصناعة، والطب، والزراعة......

بهذا النوع من الإبداع يستطيع الإنسان أن يقاوم قانون الجاذبية ويطير، أو يطوع الأثير فيتواصل مع إنسان في أقصى حدود الأرض، ويستطيع أن يعالج المرض بالطب والدواء...........

إذًا معنى الإبداع يتسع لكل ما يجعل الوجود جميلًا ونافعًا.

وكل فنان أو فيلسوف أو طبيب أو زارع أو صانع يسهم في هذا المجال فهو من أهل الإبداع الذي يجب أن تحتفي به البشرية.

الحاجة الأولى حاجة جمالية، والجمال قيمة وحالة وجدانية تختلف من نفس إلى نفس، ومن بيئة إلى بيئة، ومن عصر إلى عصر، ولكنها في كل حال تنبثق

من منظومة القيم السائدة في المجتمع. فلا يمكن أن يرى المجتمع شيئًا جميلا- حتى وإن كان جميلًا في ذاته- إذا اصطدم بقيم المجتمع، مثال ذلك التماثيل العارية التي اشتهرت بها فنون اليونان والرومان، برغم أنها جميلة في ذاتها من حيث الأداء والدقة الفنية، لا يمكن أن تكون فنًّا جميلًا في المجتمع الشرقي.

والفلسفة الوجودية قد تلقى رواجًا في أوروبا، ورفضًا في الشرق، أما الحاجة الثانية فهي ليست مجال خلاف بين البشر، فالكل يريد أن يستفيد مما وصل إليه غيره من إبداعات في مجال تطويع الطبيعة لخدمة ورفاهية الإنسان.

بناءً على هذا الفهم للإبداع نستطيع أن نؤكد أنه ليس كل شيء جديد وغير مسبوق- وهذا هو المعنى اللغوي للإبداع- يعتبر إبداعًا بالمعنى الاصطلاحي إلا إذا كان يضيف شيئًا جماليًّا في الوجود، أو يضيف شيئًا في خدمة الإنسان وتحقيق رفاهيته.

بهذا الفهم للإبداع نستطيع أن نؤكد أيضًا أن الفنون بشتى مجالاتها المقروءة والمسموعة والمنظورة، تمثل حاجة من حاجات الإنسان الأساسية في الوجود؛ لأنها تشكل مظهرًا من مظاهر الجمال في الوجود.

وتربية الشعوب على حب الجمال وتذوقه، يطبع في ثقافة الشعب نزوعًا إلى الإحسان في العمل، وتوخيًا للكريم من العادات.

إذا اتفقنا على هذا الفهم للإبداع، والذي يتسع ليشمل كافة المجالات التي تضيف للوجود جمالًا ونفعًا، مع الاعتراف بأن الجمال حالة وجدانية تختلف باختلاف النفوس والشعوب والأزمان، فسيكون سهلًا علينا أن نناقش في المقالات التالية بهدوء وأسلوب علمي، حالة الغليان المجتمعي التي تشهدها بلادنا حول حرية الإبداع.

■■■

(2) الإبداع أسلوب حضارة

سنعيش مع نموذج مثالي للتأسيس للإبداع كأسلوب في بناء حضارة جديدة هي حضارة الإسلام.

بعد الهجرة أصبح للمسلمين مكانٌ يصلون فيه علناً، وأصبح من لوازم الوطن الجديد؛ البحث عن أسلوب للنداء والصلاة.

جمع رسول الله ﷺ أصحابه ليتشاورا: كيف ينادون للصلاة؟، حسنًا، ليسوا هم الوحيدون في الدنيا الذين ينادون للصلاة، بالتفكير النمطي طبيعي أن يستدعوا تجارب من سبقهم، قال أحدهم: نستخدم بوقًا مثل اليهود، وقال آخر: نستخدم ناقوسًا كالنصارى.

رفض النبي الفكرتين، ولم يعط حلًّا جاهزًا، بل ترك الأمر قضية عامة ينشغل بها المجتمع؛ ليفكر في طريقة مبتكرة للنداء للصلاة.

يبلغ الانشغال بقضية التميز مبلغه، حتى يرى الصحابي عبد الله بن زيد في المنام صيغة كلامية للنداء للصلاة، يعرضها على النبي ﷺ فيقول:إنها رؤية حق إن شاء الله، فقم على بلال فألقها عليه؛ فإنه أندى صوتًا منك. ويسمع سيدنا عمر صوت بلال؛ فيهرول إلى النبي ﷺ ويقول له: «والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى عبد الله بن زيد».

ما رأيك عزيزي القارئ في هذا الموقف؟

نبي قائد يرسم منهاج حضارة، حضارة تقوم على الإبداع، وأول الإبداع البعد عن التقليد، والبحث عن التميز.

والنموذج أمامنا؛ لنتأمله:

أبرز مظاهر الإبداع في النداء إلى الصلاة عند المسلمين، أنه استخدم الكلمة، وما أدراك ما الكلمة!!

إنها أهم مظاهر الإبداع عند أمتنا العربية، فإن كان غيرنا من الأمم خلَّدوا مآثرهم وتاريخهم بمعابد وتماثيل وأقواس نصر، فقد خلَّد العرب آثارهم بالكلمة شعرًا، ومن تجويدهم للكلمة كانوا يقيمون لها أسواقًا يعرضون فيها قصائدهم، فكان الإبداع نابعًا من تراث الأمة، ومتسقًا مع ذوقها.

ومن مظاهر الإبداع، استخدام الصوت الإنساني بما يحمله من جمال في الأداء والتنغيم، وإبراز المعاني، بما لايمكن أن يتوفر في البوق أو الناقوس.

ومن مظاهر الإبداع، أنه يتناسب مع شعيرة الصلاة التي لا يحدها مكان في الإسلام، فقد قال النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، فأينما أدركتك الصلاة، ارفع صوتك بالنداء، فلست بحاجة للبحث عن بوق أو ناقوس، ولست في حاجة إن كنت في مجتمع بدائي أن تصنع أداة للصلاة، أو تستوردها من الخارج.

في البدء كانت الكلمة.. نموذج الإبداع في المثل البارز الذي ذكرناه، ثم اطّرد الإبداع من هذا النموذج؛ لينتج الآذان مئذنة هي علامة فنية معمارية للمسجد، وتتحول الكلمات إلى أداء صوتي موسيقي، وتتحول الأحرف والكلمات إلى فن تشكيلي مثل إيذانٍ بميلاد فن جديد تباهي به الحضارة الإسلامية حضارات العالم.

■■■

(3) الإبداع الفني للحضارة الإسلامية

سنتخذ من الفن التشكيلي نموذجًا نتحدث عنه في هذا المقال ومقالات تالية، تميزت حضارة الإسلام بأنها وضعت ضوابط شرعية في كل ما يتعلق بحياة المسلم بما فيها الفن.

وجد الفنان المسلم نفسه محاطًا بقيود وضوابط توجهه إلى الابتعاد عن تصوير (رسم) ما فيه روح، وتمنعه من عمل التماثيل.

كيف يلتزم بتلك الضوابط، وكل الإنتاج الفني للحضارات من حوله يقوم على التماثيل ورسم الأشخاص!؟، فأينما دخل في معابد الهند وبلاد فارس ومصر، أو قلَّب في آثار حضارة اليونان والرومان، يجد التماثيل بمختلف أشكالها، والكنائس وسائر دور العبادة تزينها صور الأشخاص والمقدسات، فإن كان كل هذا حرامًا، فماذا يفعل الفنان المسلم؟

هل يتمرد على قواعد الشرع، ويساير فنون عصره؟، أم يعادي فطرته ويكبت نوازعه ويتخلى عن الفن؟ أم يقبل التحدي ويبدع فنًّا؟.

قَبِل الفنان المسلم التحدي، ودخل معترك الفن، فأبدع فنًّا تشكيليًّا جديدًا يقوم على الحرف والكلمة والجملة العربية، وعلى الزخرفة بأشكالها النباتية والهندسية البديعة، كما أبدع عمارة امتدت؛ لتشمل كل مظاهر الحياة، ولم تقتصر على دور العبادة فقط.

وأهم من هذا، أنه أبدع فلسفة جديدة للفن، فبدلًا من فلسفة «الفن للفن»

التي قامت عليها الحضارات المتزامنة مع وجود حضارة الإسلام، أبدع فلسفة «الفن في خدمة الإنسان»، فبدلًا من أن يكون الفن متمحورًا حول آلهة موهومة مزيفة، وأشخاص وحيوانات مقدسة، وحكام وأسر أرستقراطية، صار الفن في حضارة الإسلام أسلوب حياة، فلم يعد مقصورًا على دور العبادة فقط، بل في كل بيت، بدءًا من عمارته التي تتميز بالخصوصية والبيئة الداخلية الخضراء، والجمع بين الهدوء وتدفق الضياء، مرورًا بزخارف الخط العربي والزخارف الإسلامية التي تزين الجدران، وصولًا إلى أدوات الاستخدام اليومي من أواني، وأسلحة، وسجاجيد، حتى تجليد الكتب، وتزيينها بالمنمنمات (الصور الدقيقة) من الداخل، وتزيين المصاحف بالزخارف، كل هذه العناصر مزينة بالفن الإسلامي الفريد.

وامتد الفن الإسلامي؛ ليصبغ الحياة العامة بصبغته الفنية في الأسواق أو القيصرية، والأسبلة (المكان الذي يستسقي منه المارة)، والتكية (بيت الدراويش) والحمامات العامة، والمدارس، وأسوار المدن، ...، .

تستطيع أن تتذوق هذا الجمال وأنت تتجول في شوارع القاهرة، ودمشق، واسطنبول، وسائر الحواضر التي أشرق عليها الإسلام، فصبغها بلمسة من جماله وجلاله.

باختصار فقد أبدع الفنان المسلم فنًّا جديدًا جعل معنى الفن في الإسلام يختلف تمامًا عن معنى الفن المسيحي، أو الفن البوذي.

فالفن المسيحي يعني الفن الذي صنع خصيصًا للكنيسة من تصوير وموسيقى، ونحت وغيرها، وكذلك الفن البوذي هو فن المعابد وكل ما يتعلق ببوذا.

بينما يعني الفن الإسلامي كل ما قام بصنعه المسلمون، أو كل ما ابتكره من حِرَف وفنون في البلاد التي أشرقت عليها شمس الإسلام، في كل ما تقع عليه عينك: في البيت، والسوق، والطرقات، ودور العبادة.

ولك أن تتخيل، لوساير الفنان المسلم فنون عصره- حتى وإن طورها- هل كنا سنبدع هذا الفن الجميل الذي صار علمًا على حضارتنا الإسلامية، وصبغ البلاد التي فتحها بصبغته.

نعم نحن مدينون للفنانين الذين أبدعوا تلك الفنون، التي جعلت لنا حضارة مميزة بخصائصها الفنية.

■■■

(4) خصائص الفن الإسلامي

من أهم خصائص الفن الإسلامي، أنه انبثق من عقيدة شاملة تنظم حياة المسلم في كل شئونه، فهذه العقيدة ليست عبادة فقط، وليست أخلاقًا فحسب، ولكنها تصور كامل للحياة، تكون في ضمير المؤمن بهذه العقيدة، منظومة قيم تنظم العلاقة بينه وبين الكون من حوله.

والفن ما هو إلَّاتعبيرٌ عن قيم حية ينفعل بها ضمير الفنان.

ومن هنا كانت أول خصائص الفن الإسلامي، أنه لم يقتصر على دور العبادة فقط مثل غيره من المعتقدات، ولم يقتصر على قصور الأسر الحاكمة والطبقة الغنية مثل الفنون المعمارية المتداولة في الغرب في هذه الحقبة مثل الروكوكو والباروك، لكن امتد ليشمل كل مظاهر الحياة.

الخاصية الثانية أن الفن الإسلامي انبثق عن عقيدة التوحيد التي تبتعد كل البعد عن تجسيم أو تصوير الإله، ومن ثم كانت السمة البارزة للفن الإسلامي أنه ليس فن محاكاة (تقليد)، ولكنه يقوم على التجريد، ويطلق لفظ التجريد في الفن على طراز يبتعد فيه الفنان عن تمثيل الطبيعة في إنتاجه، ويعتمد على استخلاص الجوهر من الشكل الطبيعي، وعرضه في شكل جديد.

وهذا التجريد هو الميزة الأساسية في الفن الإسلامي الذي اعتمد على الحرف العربي والزخرفة بأشكال هندسية ونباتية في تناسق وتناغم مَثَّلَ كنزًا فكريًّا ومَعينًا لا ينضب لخيال الفنانين، ومثَّل خطوة متقدمة في الفن لم يصلها

الفنان الغربي إلا من خلال مدارس الفن الحديث في أواخر القرن التاسع عشر، وبهذه الخاصية كان الفنان المسلم بحق سابقًا لعصره.

والخاصية الثالثة: أن الفن الإسلامي على تنوع أنماطه، واختلاف بلدانه بثقافاتها المتنوعة، وعلى امتداده الزمني، تجمعه روح واحدة، هذه الروح الواحدة ضمنتها الكلمة القرآنية، والحرف العربي، فحيثما حلت هذه الكلمة في بلد ما من البلاد التي أشرقت عليها شمس الإسلام تفاعلت مع عناصر الفن السائدة في الإقليم، وأنتجت فنًّا إسلاميًّا.

ويستطيع أي ناقد فني، أو متذوق للفنون، أن يزور متحفًا للفنون الإسلامية، فيدهشه وتبهره تلك الروح الواحدة في تلك الروائع التي جمعت من نتاج أزمان متباعدة على مدى ألف وأربعمائة عامًا، كما جمعت من أماكن متباعدة تباعد الصين عن الأندلس.

كما أن تلك الروح شملت الفنون الإسلامية على تنوعها من عمارة وخط وزخرفة ونسيج وسجاد وخزف وخشب، وتستطيع حتى اليوم أن تدخل أسبانيا فتميز أن هذا أثرٌ من آثار المسلمين، وتستطيع إذا ذهبت إلى إندونيسيا أو الصين أن تشخص أي عمارة إذا كانت عمارة إسلامية بمجرد الاطِّلاع عليها.

ومن خصائص الفن الإسلامي تأثره بالبساطة التي دعا إليها الدين الإسلامي الذي حرَّم استخدام الآنية من الذهب والفضة، فطوَّع الفنان المسلم عناصر الطبيعة البسيطة؛ ليصنع منها عناصر جمالية تميز فنه الراقي، فاستخدم الخشب، وأبدع في الحفر والنقش عليه، وزينه بالحرف العربي والزخرفة، ليس فقط في محراب المسجد، بل في الأبواب والأثاث المنزلي والمشربيات، واستخدم الجبس، وابتكر الخزف ذي البريق المعدني المصنوع من الطين الملون بالأكاسيد.

ومن خصائص الفن الإسلامي أنه ينطبق عليه ما يقوله نقاد الفنون: «إن الفن الرفيع يخفي ما قد يبذله الفنان من جهد في بنائه»، وأي ممارس للفن التشكيلي الإسلامي، وأي مقدر له يعلم الجهد الكبير الذي يبذله الفنان للوصول لدرجة الإجادة في هذا الفن، والوقت الطويل الذي يستغرقه تعلم هذا الفن للموهوبين بالفطرة، وضرورة الاستمرار في ممارسته وعدم الانقطاع عنه؛ لتستمر لياقة الفنان مؤهلة له على الإنتاج، والسبب في هذا نستطيع أن نختصره في التعبير البديع الذي عبر به «أبو حيان التوحيدي» على سيد الفنون العربية وهو الخط العربي بقوله: «الخط هندسة روحانية» فالهندسة تعبر عن قواعد صارمة تحدد نسب الحرف.

ومع كل هذه القواعد الصارمة وضرورة الالتزام بها؛ لا يكتمل جمال الإنتاج الفني إلا بروحانية الفنان التي تجعل من حروفه سيمفونية بديعة متجددة المعاني.

ومن أهم خصائص الفن الإسلامي أنه يتجاوز حدود الزمان والمكان، فلم يكن يهتم أبدًا بتسجيل الأحداث التي يطويها الزمن، ولم يكن له ارتباط بموضوع معين، فالحرف العربي الذي يستخدمه والأشكال الهندسية التي يكون منها زخرفته لا تتعلق بزمان معين ولا بمكان معين، فمن خصائص جماليات الفن الإسلامي أنه ترجمة صادقة لزوال الإنسان والطبيعة والوجود في مقابل أزلية الواحد الأحد.

ويتفرع عن هذا أن الفن المرتبط بالخيال والمتطلع إلى الأزل؛ أنه ذو عطاء متجدد ضمن له البقاء بل الخلود، عبر عن هذا الرسام الإيطالي الشهير «آندريو لوتي»: «إن الخط العربي كسيمفونية متناسقة الأنغام تتجدد كلما نظرت إليها».

هذه بعض خصائص الفن الإسلامي، كان لا بد أن نتحدث عنها قبل أن نتحدث عن أثر الفن الإسلامي في الفن الغربي الحديث.

(5) أثر الفن الإسلامي في فنون الغرب

«بيكاسو» أحد أشهر الفنانين التشكيليين في القرن العشرين، وينسب إليه فضل تأسيس أحد مدارس الفن الحديث وهي المدرسة التكعيبية.

يقول عن فن الخط العربي: «إن أقصى نقطة أردت الوصول إليها في فن التصوير، وجدت الخط الإسلامي قد سبقني إليها منذ زمن بعيد».

من الطبيعي أن تصدر هذه الشهادة من بيكاسو؛ لأنه نشأ في إسبانيا، ومن المؤكد أنه تغذى بصريًّا على آثار الإسلام الموجودة في بلاد الأندلس، ومن ناحية أخرى؛ لأنه أحد فناني العصر الحديث المتمردين على الموروث الفني السائد في أوروبا، والذي كان يقوم على المحاكاة، فكان من الطبيعي أن يمثل الفن التشكيلي التجريدي الإسلامي مصدر إلهام أو على الأقل محل تقدير من «بيكاسو».

لقد ظل الفن التشكيلي الأوروبي طوال تاريخه الطويل مرتبطًا بالواقع المرئي تمام الارتباط، واتخذ الفن صورًا مختلفة وأطوارًا متتالية من الكلاسيكية إلى الرومانسية ثم الواقعية، حتى المدرسة التأثرية التي هي آخر حلقات تطور فن المطابقة والمحاكاة قبل ثورة الفن الحديث.

وقف الفنان الغربي في أواخر القرن التاسع عشر متأملًا في فنه، متسائلًا: ما هي القيمة الإبداعية الجمالية المضافة إذا استمر الفن التشكيلي عبارة عن محاكاة للطبيعة، خاصة.. وأن بداية ظهور آلة التصوير الفوتوغرافي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر، فإن كانت آلة تستطيع أن تفعل ما أفعله، فما هي قيمتي مهما بلغت دقتي في نقل الواقع؟ ومن هنا وجد الفنان نفسه أمام حتمية التغيير والتعبير بشكل إبداعي.

وساعد على ذلك أيضًا تأثر الفنان بآراء فلاسفة الجمال في العصر الحديث، ومنها النظرية الفيثاغورثية في الجمال، والتي ترى أن الجمال المثالي الخالد في هذا الكون يقوم على نسب هندسية دقيقة، وعلاقات رياضية محكمة، ونظرية «عمانويل» في الظاهر والحقيقة، والتي تدعو الفنان أن يتخطى الشكل ويركز في المضمون، بل تأثر كذلك بنظرية «سيجموند فرويد» عن اللا شعور، وهذه النظرية تقوم على دراسة أعماق النفس البشرية والنفاذ إلى أغوار اللاشعور وما يصدر عنه من رؤى وتصورات رمزية حالمة وغامضة أيضًا.

ومن هنا نشأت مدارس الفن الحديث التي يجمعها فكرة البعد عن المحاكاة، ويفرقها نظرتها لفلسفة الجمال والفن، فالمدرسة التكعيبية ترد الأشكال الطبيعية إلى أصولها من الأشكال الهندسية، والمدرسة السيريالية تستمد الجمال الفني من عالم اللاشعور البعيد عن الصور المشاهدة في عالم الواقع، وهكذا...

ونحن لا نقول هنا إن الفنانين الغربيين تتلمذوا على أيدي الفنانين المسلمين، ولكن حينما بدؤوا مسيرتهم في تجديد الفن الموروث عبر آلاف السنين؛ وجدوا الفن الإسلامي قد سبقهم بمراحل، وهو ما عبر عنه «بيكاسو» في بداية المقال، فكان الفن الإسلامي مصدر إلهام للفنان الغربي عبر حركة الاستشراق التي اطَّلع فيها فنانو الغرب على آثار المسلمين، ومن خلال معارض الفن الإسلامي التي تجولت في ربوع أوروبا.

وقد عاصر الفيلسوف الراحل «زكي نجيب محمود»معرضًا للفنون الإسلامية في «لندن»، فقال معلقًا على ما قرأه من نقاد الغرب: «هاأنا ذا أقرأ

لنقاد الفن ذوي الإمكانيات المرموقة في لندن، لمحات مضيئة نافذة إلى الأعماق....، ولقد كنت أقرأ ما كتبه هؤلاء النقاد فأشعر بالزهو يملأ نفسي كلما انتقلت من سطر إلى سطر؛ لأن كل سطر مما كتبوه جاء مفعمًا بشعور الدهشة؛ لروعة ما تقع عليه أبصارهم»، بل إن الدكتور «مراد هوفمان» السفير السابق لألمانيا في المغرب الذي اعتنق الإسلام قال في كتابه «الطريق إلى مكة»: «إن من بين أسباب اختياري للإسلام؛ إعجابي وتأثري الشديد بجمال الفن الإسلامي، إذ اكتشفت أن الإسلام ذو طبيعة جميلة متصلة بالفن».

نعم من حقنا أن نفخر بالفن الإسلامي الخالد، وندين بالعرفان لرواد هذا الفن الذين اختاروا الطريق الصعب، طريق الإبداع الخلاق، فقد خالفوا الفن المألوف في العالم كله؛ ليبدعوا هذا الفن الخالد، الذي استمر في عطائه وتميزه طوال سنين مضت، وننتظر من فنانينا المبدعين أن يسيروا على خطى آبائهم الأولين.

■■■

(6) حرية الإبداع

وصلنا إلى بيت القصيد، بعد أن تحدثنا في المقال الأول عن معنى الإبداع، وفي الثاني عن مثل تطبيقي للإبداع، وفي الثالث والرابع عن الفن الإسلامي وخصائصه، وفي الخامس عن أثر الفن الإسلامي في فنون الغرب.

آن لنا أن نتحدث عن حرية الإبداع، تلك القضية التي أصبحت معركة كلامية حامية الوطيس، في هذه المعركة نرى أن الإبداع تم اختصاره فقط في الفنون، ثم تم اختصاره مرة أخرى في فن التمثيل وما يتعلق به بصفة خاصة.

حسنًا، لنجاريهم ونتحدث عن فن التمثيل والإبداع فيه.

فن التمثيل أصبح من أكثر الفنون تأثيرًا في حياة الشعوب، ومن هنا رأينا كيف أن أمريكا غزت العالم بثقافتها عبر الأفلام السينمائية، فقد كانت السينما الأمريكية رأس الحربة في غزو العالم ثقافيًّا، حتى أن «خروتشوف» الرئيس السوفيتي السابق قال: «أنا أخشى هوليوود أكثر من خشيتي للصواريخ الأمريكية عابرة القارات».

السينما الأمريكية سوقت لنموذج المعيشة الأمريكية بدءًا من لبس الجينز مرورًا بأكل الهامبورجر، السينما الأمريكية كانت حاضرة دومًا لخدمة السياسة الأمريكية وتحسين صورة أمريكا، فسلسلة أفلام «رامبو» أنقذت سمعة الجيش الأمريكي التي تمرغت في وحل فيتنام، عن طريق تصوير القدرات الجسمانية والبطولية الخارقة للجندي الأمريكي، وتصوير الفيتناميين على أنهم شعب همجي متوحش، وفيلم «بيرل هاربر» يقابل وحشية أمريكا بضرب اليابان

بالقنابل الذرية بتصوير الجيش الأمريكي على أنه هو المعتدَى عليه، وله كل الحق في الرد على وحشية اليابانيين.

إذا كان هذا النموذج الأمريكي بما يحمله من إمكانيات ضخمة، فهناك نموذج آخر هو نموذج السينما الإيرانية التي يعتريها ما يعترينا من قلة الإمكانيات، ويزيد عليها القيود المفروضة على صناعة السينما حتى يحظر ظهور نساء غير محجبات، حتى وإن كان المشهد مصورًا في غرفة النوم بين أم وأسرتها، وبرغم قلة الإمكانيات وكثرة القيود فقد فرضت السينما الإيرانية نفسها على الساحة الفنية الدولية حتى يكاد لا يخلو أي مهرجان دولي من حضور للسينما الإيرانية، وفي عام 2000 فاز الفيلم الإيراني «قندهار» بجائزة لجنة التحكيم في مهرجان كان، وحصول المخرج الإيراني «عباس كيارو ستامي» على السعفة الذهبية لمهرجان كان 1997.

فمن الواقع الشرقي المحلي والهوية الثقافية للمجتمع استطاعت السينما الإيرانية تقديم أفلام ذات طابع إنساني تعبر عن خصوصيتها وتفردها وعدم تشبهها بأي سينما أخرى، وحازت عالميتها من هذه البوابة؛ لتثبت أنه بالعقول لا بالأموال، وبالابتكار لا بالتقليد، تستطيع أن تفرض احترامك على الغير، فهل لنا أن نسأل أصحاب الصوت العالي والحضور الإعلامي الطاغي ممن احتكروا وصف فنان على من يمارسون فن التمثيل وما يلحق به فقط، نسألهم: أين هو إبداعكم؟ وماذا قدمتم للعالم عن بلدكم؟ هل قدمتم إنتاجًا إنسانيًّا يرتقي بوجدان مشاهديكم ومحبيكم؟ ماذا قدمتم عن إنجازات بلدكم في حرب العاشر من رمضان أو ثورة 25 يناير؟

حتى لا نعمم ونظلم القليل من المجدين، نقول: إن معظمكم تاجر بفنه على حساب آلام ومعاناة شعبه بدعوى الواقعية، وتاجرتم بفنكم على حساب الفضيلة والأخلاق، ونشر الإسفاف على أنه مطلب جماهيري يضمن لكم بيع تذاكر الشباك، بلادكم تنتظر منكم ما ينتظره الشعب من الفن، أن يكون الفن معبرًا عن آمال وطموحات الشعب، أن يكون موجهًا للرقي والتقدم والعمل، أن يكون ترجمانًا لثقافة وهوية شعب عظيم آثاره تذخر بها دول العالم دليلًا على عظمته، فإن كنتم مبدعين بحق فهذا هو الطريق، واعذرونا في قولنا إنكم تتاجرون بحرية الإبداع لمصلحة جيوبكم على حساب مصلحة أمتكم.

ضربنا لكم نموذجًا حديثًا بالسينما الإيرانية، وكذلك ضربنا لكم المثل في الفنان الذي أسس للفن الإسلامي، وعليه فإننا نحن الذين نطالبكم بالإبداع الفني، ونعطيكم كامل الحرية كجمهور محب للفن، بشرط أن يكون الفن في خدمة المجتمع، وليس الفن للفن، أو الفن في خدمة الفنانين.

■■■

لا هو فن، ولا هم فنانون

الفن تعبير عن حالة داخلية غامضة داخل الإنسان تجعل نفسه تهتز مع الفن طربًا وشوقًا وشجنًا وضحكًا وبكاءً.

إن استطعت الإحاطة بتعريف الروح فيمكنك حينها الإحاطة بتعريف الفن، فالفن في أرفع درجاته إلهام وإبداع، وسموه بقدر تعبيره عن روح الإنسان.

الناس يسمون «سيد درويش» فنان الشعب؛ لأنه قدم فنًّا وجدوا فيه أنفسهم، غنى لثورتهم ضد المحتل، وغنى للعامل الكادح، «والصنايعي»، والحمَّال، «والعربجي»، ....، .

لماذا ظلت المعالم المعمارية من أسبلة وتكايا وخانات، معالم فنية بارزة أبدعتها يد الفنان المبدع؟؛ لأنها فضلًا عن قيمتها الفنية عبرت عن روح المجتمع وثقافته، مجتمع الخير؛ حيث الأسبلة لسقيا المارة والتكايا لإطعام الطعام، والخانات لإيواء عابري السبيل وطلبة العلم.

هذا الفن الذي تسمو قيمته بقدر تعبيره عن روح الإنسان، يفقد قيمته إذا تحول إلى أداة لخدمة شخص أو نظام، يفقد قيمته إذا تحول إلى مادة لإثارة الغرائز طمعًا في الربح السريع.

النظم الديكتاتورية في كل العصور حاولت توظيف الفن لتثبيت أركانها، فالاتحاد السوفيتي في عهد «ستالين»حدَّد دور الفن تحديدًا صريحًا في خدمة النظام؛ حيث أعلنت السلطة أن الواقعية الاشتراكية هي المنهج الصحيح الوحيد للفن السوفيتي، وقرر «هتلر» شكل الفن المسموح به في بلاده في خطاب له عام 1937، حين قال:

«إن الفن الحديث [الانطباعية– التكعيبية–.......] لا علاقة لها بشعبنا

الألماني، وهي مجرد خربشات أناس حرمهم الله الموهبة، وإنني توصلت إلى قرار بتطهير الوطن من ذلك تمامًا كما فعلت بالفوضى السياسية، ومن الآن فصاعدًا سوف أخلي الحياة الفنية الألمانية من هذا الابتذال»!

وفي أوائل الستينيات زار الزعيم السوفيتي «خرشوف»معرضًا للفن الحديث، فقال معلقًا: «في وسع ذَنَب حمار أن يرسم لوحات أفضل»،

وعليه منعت أعمال «بيكاسو» ورفاقه، بل قامت السلطات السوفيتية بوضع روايات «ديستوفيسكي» المسيحية على القائمة السوداء.

وتحولت روسيا التي قدمت للعالم أعظم الأدباء من أمثال «تولستوي» و«ديستوفيسكي» و«تشايكو فيسكي»؛ إلى الاتحاد السوفيتي الذي لا تكاد تشير فيه إلى فنان إلا قلة ممن تمردوا على النظام، وكما مضى الزمن بهتلر والفنانين الذين داروا في فلكه، ومضى بستالين والفنانين الذين سخروا مواهبهم لمدحه وإنشاء تماثيله.

سيمضي كل فن تم تسخيره للسلطة الزمنية غير مأسوف عليه مع سلطته الزائلة.

ستمضي إلى زوايا النسيان والسخرية واللعنة أغاني «هز الوسط» التي سموها أغاني وطنية.

وستمضي أغاني بث الكراهية التي قسمت الشعب إلى شعبين.

وسيمضى فن رخيص باسم الواقعية، وباسم شباك التذاكر قدم أسوأ صورة ممكن أن تُقدم لمجتمع.

عزيزي القارئ: هناك فرق بين الموهبة والفن، فليس كل موهوب فنان؛ ولذلك نقولها بملء الفم إن هؤلاء الذين فقدوا روح الفنان وسخروا مواهبهم لخدمة شخص أو نظام أو للمتاجرة بإثارة الغرائز، هؤلاء جميعًا وما يقدمونه:

لا هو فن، ولا هم فنانون.

من وحي متحف «اللوفر»

متحف «اللوفر» من أعظم متاحف العالم، وأعظم ما فيه: قسم الحضارة المصرية القديمة، وأجمل ما فيه: قسم الفن الإسلامي.

لا تتعجل وتتهمني بالتعصب، فهذه قناعتي وفقًا لمشاهدتي؛ وإليك أسبابي:

القسم المخصص للحضارة المصرية هو أكبر قسم من حيث المساحة، ويشتمل على أكبر عدد من التحف، والقطع الأثرية الموجودة فيه هي الأقدم زمنًا، والأكثر قيمة على الإطلاق، وقبل هذا وذاك فإن تلك المعروضات هي أصدق تعبير عن الحضارة الإنسانية بمعناها الإنساني الشامل.

ففي حين تتمحور الحضارة اليونانية والرومانية حول الجسد الإنساني استعراضًا لقوة الرجال وجمال النساء؛ نجد الحضارة المصرية بمعروضاتها تأخذك في جولة شاملة لتصور الحياة والممات وما بعد الممات، تعرض لك أقلام الكتابة وتمثال الكاتب الذي يعود إلى 2500 سنة قبل الميلاد، وتعرض أدوات الزراعة ومركب الصيد، وآلات الموسيقى وأواني الطعام ولوازم الزينة، ...، .

ومع كل تفاصيل الحياة التي صنعت الحضارة تنتقل إلى الطقوس الجنائزية والتوابيت والمقابر، وتسجيل تصورهم لما بعد الموت، في تصوير فريد لثقافة الشرق الروحية.

كل هذه المظاهر بتنوعها وامتدادها الزمني تعكس صورة الحضارة المصرية التي مثلت وحدة سياسية وجغرافية وثقافية للدولة المصرية القديمة، أما قسم الفن الإسلامي فيكفي ابتداءً أن تعرف أن كلمة «فن» لم يتم إطلاقها

على أي قسم من أقسام المتحف سوى على قسم المعروضات الإسلامية، والقسم المخصص لفن الرسم فقط.

فن الرسم المعروض في مجمله فن محاكاة أي تقليد أو تصوير لوقائع مرئية، وبالطبع هو لا يخلو من جمال يصل لحد العبقرية، ومع ذلك فقد تجاوزه الزمن بظهور مدارس الفن الحديث.

أما الفن الفريد فهو الفن الإسلامي، وأكثر ما فيه من تفرد أنه فن يصبغ كل مظاهر الحياة، فالفن الإسلامي لا يعني الأعمال التي تصنع لأغراض دينية كما هو الحال في العقائد الأخرى، وليس لوحة ترفع على أحد الجدران، ولكنه زينة وجمال لكل ما تنتجه يد الإنسان من أدوات الاستخدام اليومي من أواني وأثاث وثريات، وأغلفة الكتب ومنمنماتها الداخلية، وحتى الأسلحة وأغلفتها، ......، .

وفي كل ما تقع عليه العين في المسجد، والسوق، وحمامات السوق، والأسبلة، والتكية، والخان (الفندق) والمدارس، .....، .

هذا فن لا يقوم على التقليد ولا التشبيه ولا التمثيل، ولكنه سبحات روحية، وخيال فنان، ودقة صانع، وعبقرية نظرية فنية مكتملة المعاني، هذا الشمول والتجريد في الفن الإسلامي هو انعكاس لعقيدة التوحيد وشمولية الإسلام.

فالإسلام لا يقبع داخل جدران المسجد، ولا يحبس داخل صدور المؤمنين به، ولكنه صناعة حضارة، وقيادة بشرية.

فهل يعي أحبابنا من بني جلدتنا وأبناء عقيدتنا هذه الحقيقة، التي عبر عنها المستشرق «جب» في مقدمة الترجمة المصرية لكتاب «وجهة الإسلام»: (الحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات، إنه أعظم من ذلك كثيرًا، هو مدنية كاملة، ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا العالم المسيحي، ولم نقل المسيحية)

الحضارة البشرية من الصدام للتكامل

كم كنت فخورًا وأنا أسمع من دليلنا السياحي في مدينة «قرطبة» قوله: «إن هذه المدينة هي وأخواتها «أشبيلية» و«غرناطة»و»طليطلة»، وغيرها من مدن الأندلس كانت الوحيدة في أوروبا التي تجسد فيها التعايش المشترك بين المسلمين والمسيحيين واليهود تحت مظلة الحكم الإسلامي»، لو لم يقل الدليل هذا؛ لنطقت به الآثار الباقية من أطلال حضارتنا بالأندلس.

ففي طليطلة دخلت معبدًا يهوديًّا (تحول هو الآخر إلى كاتدرائية) فوجدته يشبه كثيرًا بناء المسجد، فسألت الدليل فقال لي: «إن هذا المعبد بناه العرب المسلمون لليهود المقيمين في الدولة».

وفي جامع قرطبة الكبير، يوجد ما يشبه لوحة الشرف لمن شاركوا في بناء وتجميل مسجد قرطبة الجامع، فوجدت ضمن الأسماء، أسماءً مسيحية ويهودية كانوا من رعايا الدولة الإسلامية، ولكن للأسف كانت فترة التعايش هذه وميضًا لمع في سماء أوروبا ثمانية قرون في البقعة التي حكمها المسلمون، ثم انقلب الحال حين كانت الغلبة للأسبان، فتم قتل وحرق وطرد جميع المسلمين، وحتى من تنصَّر من العرب؛ لتخلوا أسبانيا من بناة حضارتها، فكان حالها كما وصفه «جوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب»: «لم تكن أسبانيا ذات حضارة تذكر قبل الفتح العربي، فصارت ذات حضارة نافذة في زمن العرب، ثم هبطت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط بعد جلاء العرب، وهذا مثال بارز على ما يمكن أن يتفق للحضارة الإسلامية من تأثير».

لن ننكأ جراحًا مضت، ولكن لننظر إلى مستقبل البشرية، إلى أين نحن سائرون؟ هل نحن سائرون إلى ما بشرنا به "صمويل همنجتون» إلى تصادم الحضارات؟ وهو ما نرى الغرب يحوله من نظرية إلى تطبيق في كل ما يدور حولنا من أحداث؟، أم أننا سائرون إلى الانتقال من ذكرى التعايش إلى أمل تكامل الحضارات؟.

أرى أن الغرب لا يمكن أن يقود العالم نحو التعايش أو التكامل، وهو لم يقدم عمليًّا في حاضره أو في أي مرحلة من مراحل تاريخه نموذجًا للتعايش، والأمل معقود على أن تنهض الحضارة الإسلامية من كبوتها؛ لتقود العالم من جديد إلى صياغة علاقة جديدة تقوم على التعايش في حدها الأدنى والتكامل في حدِّه المأمول، وأرى أنه ليست العقبة في طريق تحقيق الهدف هي قوة الحضارة الغربية ورغبتها في التغلب، ولكن العقبة الحقيقية هي غفلة المسلمين عن عظمة دينهم، ولست أعني بهذا فقط المسلمين المفتونين بحضارة الغرب من الذين لا يتصورون أن هناك حضارة إسلامية تشمل كافة مناحي الحياة، ولكني أعني أيضًا بعض الإسلاميين الذين يتصورون الحضارة الإسلامية سيفًا ورمحًا، وأنها لا تسود إلا بغلبة أو محو غيرها من الحضارات.

سيقول البعض: عن ماذا تتحدث؟ أنت في وادٍ ونحن في واد، نحن مشغولون في لملمة جراحاتنا الداخلية في بلادنا العربية.

وأنا أقول لهم إن هذه الجراحات هي آلام المخاض الجديد لأمة جديدة، انطلقت شراراتها بثورات الربيع العربي، وسترسو سفينة الثورة التي أجراها الله على عينه؛ إلى بر النجاح والفلاح لأمة مكانها القيادة والريادة، وإن غدًا لناظره قريب.

■■■

بين القصرين تتميز حضارتين

القصران المقصودان هما قصر فرساي وقصر الحمراء.

قصر فرساي رمز عظمة فرنسا، ومسكن ملوكها بداية من لويس الرابع عشر، وقصر الحمراء هو رمز عظمة الحضارة الإسلامية في الأندلس.

المسافة بين القصرين هي المسافة بين فلسفتين لحضارتين متباينتين.

كيف؟ لنرى:

قصر فرساي هو قمة الفن الكلاسيكي الفرنسي، قصر بديع بعمارته الفخمة ورسومه التي تغطي أسقفه وجدرانه ببريق الذهب الذي يلمع من نقوشه وأثاثه، بثرياته المتلألئة، بصالاته الواسعة وأسقفه المرتفعة.

يشعرك في كل جزء فيه بضآلتك وفخامته، قصر تم بناؤه؛ ليخطف أبصار الناظرين إليه ويقذف المهابة في نفوس زائريه، أيقونته هي تاج الملك لويس الرابع عشر.

أما قصر الحمراء فتتجلى فيه كل معاني الجمال والسكن، والراحة والهدوء، والبساطة.

امتزاج عجيب بين السكن والطبيعة، مجاري الماء تنساب تحت قدميك وأمام ناظريك، وصوته يشنف أذنيك، والزروع والأزهار بمناظرها المبهجة ورائحتها الزكية، وزخارف البناء التجريدية العجيبة في جمالها ودقتها وتناسقها وألوانها المريحة للعين، مع تداخلات الخط العربي

بتشكيلاته العبقرية، وهذه الزخارف من خامات الأرض، فهي إما من الجص (الجبس) أو من الطين الملون المعالج حراريًّا (الفسيفساء - الزليج). وأيقونة القصر شعار (لا غالب إلا الله)، وأنا منشغل بين هذين النموذجين قفز إلى ذهني ما ذكره الأديب {يحيى حقي} في إحدى مقالاته المجموعة في كتابه: «في محراب الفن (إنني حين دخلت قصر فرساي، سألت نفسي كيف كان يعيش أهله فيه؟ حمدت الله أنني لم أكن لويسًا- حتى ولو الرابع عشر- كيف أستطيع أن أنعم بالحياة في مسكن لا أنفك أصاب فيه بزكام من شدة تيارات الهواء، أحس أنني مضيع لا أهنأ بخلوة مريحة في هذه السلسلة التي لا تنتهي من الصالونات والممرات، أضف إلى ذلك أنني لم أجد حمامًا ولا مرحاضًا، .....، .)

ثم انتقلت إلى«جوستاف لوبون» يصف في كتابه «حضارة العرب» قصر الحمراء بقوله: {لا يشابه قصر الحمراء قصور أوروبا مطلقًا، فليس فيه ردهات «ممرات وصالونات» فخمة مملة باردة مثل ردهات قصورنا الأوروبية التي رسمت ليعجب بها الزائرون، لا لتلائم ساكنيها}، ثم يذكر ما تغنى به «فيكتور هوج» في قصر الحمراء: «أيتها الحمراء، أيها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام، أيتها القلعة ذات النوافذ المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان، حينما تنعكس أشعة القمر المضيئة على جدرك من خلال قناطرك العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر الألباب».

إن هذه المقابلة بين القصرين هي مقابلة بين فلسفتين:

الأولى: تعتمد على خطف الأبصار بمظاهر الإبهار، تهتم بالمظهر على حساب الجوهر، محصورة في الدنيا ومادياتها، فانعكس ذلك على إنتاجه

االحضاري والفني، فالفنان هنا محبوس داخل المادة المحسوسة فلم يتجاوز خياله ما تراه عيناه، فأنتج تماثيل ورسومًا تمجد شخص الملك، وتمثل شخوصًا وأحداثًا، وفى أبعدها خيالًا تمثل بعض أساطير اليونان.

أما الثانية: فهي فلسفة تعتمد على امتزاج النفع بالجمال، تهتم بجوهر الإنسان وروحه اهتمامها بمتطلبات جسده، فلسفة أطلقت العنان لخيال إنسانها ليسبح في عالم آخر، فيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فأنتج فنانها من طين الأرض وخاماتها الرخيصة فنونًا بديعة لا تجد لها مثيلًا فيما تقع عليه عيناك في الدنيا، إنسان لم يتعلق بشخص، ولكنه تعلق بالسرمدي الأبدي (لا غالب إلا الله).

■■■

في ربوع الأندلس

سعيت إليها يحدوني شوق وهيام وخيال، طالما تخيلتها، وعشت أجواءها وأنا أقرأ شعر «ابن هانئ»و»ابن زيدون»، وفقه وفلسفة «ابن رشد»، ومقدمة «ابن خلدون»، عشت فيها على بعد المسافات وأنا متيم بمغامرة «صقر قريش» وسيرة «يوسف ابن تاشفين».

طربت لها- وأنا أسمع:

جـادَكَ الـغيْثُ إذا الغيْثُ هَمى　　　يـا زَمـانَ الـوصْلِ بـالأندَلُسِ

إنها بقعة الضوء في عصر الظلام الأوروبي، ومركز الإشعاع وسط ضباب الجهل والتخلف، وأرض التعايش والتسامح بين الأديان في زمان التعصب، تجولت في ربوعها أتلمس آثار حضارتنا، فوجدت أطلال حضارة قدر الله أن ينقذها من براثن الجهل والتعصب.

مسجد قرطبة الجامع الذي يتسع لأربعين ألف مصلٍّ، مازال بنيانه قائمًا ولكن تحول إلى كاتدرائية، ولم ينج من داخله إلا جزءًا من أعمدته وأقواسه، وشواهد جمال وإبداع قل نظيره في زخارف المحراب وبعض أجزاء المسجد، أما مسجد أشبيلية الجامع والذي تحول هو الآخر إلى كاتدرائية، فلم ينج منه إلا منارته، أراد الله لها البقاء لتظل شاهدة على عظمة من بناها، لم أر منارة في ضخامتها، صعدت إلى قمتها (ارتفاعها 98 مترًا)؛ لأرى مدينة أشبيلية كلها تحتي كأني أنظر من طائرة، وجدت وأنا أتجول في شوارع قرطبة مدرسة مهجورة كانت لتعليم القرآن، زخارفها آية من آيات الجمال، ظللت أنتقل من أثر إلى أثر، وأتذكر تلك المعالم التي كانت عامرة بذكر الله، والعلم والعرفان،

ويرن في أذني مطلع قصيدة «دعبل الخزاعي» في آل البيت:

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مُقفِرُ العَرَصاتِ

ذهبت إلى آخر معاقل المسلمين في الأندلس «غرناطة» زرت معلمها الأبرز «قصر الحمراء» ومررت برياض «جنة العريف» نظرت إلى رياضها العامرة والماء يجري تحتنا، ويلمع تحت ضوء الشمس كالفضة وقطرات الندى التي بللت الزهر كأنها دمع تجاوب مع عبراتي، فترنمت بشعر «ابن زيدون» وهو يعبر عن شعوري:

والرّوضُ عن مائِه الفضّيّ مبتسمٌ ... كما شقَقتَ عنِ اللّبّاتِ أطواقَا

نلهُو بما يستميلُ العينَ من زهرٍ ... جالَ النّدَى فيهِ حتى مالَ أعناقَا

كَأنّ أعْيُنَهُ إذْ عايَنَتْ أرَقي ... بَكَتْ لِما بي فجالَ الدّمعُ رَقَرَاقَا

وردٌ تألّقَ في ضاحي منابتِهِ ... فازْدادَ منهُ الضّحى في العينِ إشراقَا

وبما أن الحديث، حديث عاطفة؛ أترككم مع مقاطع من مرثية الأندلس للشاعر «أبو البقاء الرندي»:

تَبكِي الحَنيفيَّةُ البَيضَاءُ مِن أَسَفٍ ... كَما بَكى لِفراقِ الإِلفِ هَيَمانُ

عَلى دِيارٍ مِنَ الإِسلامِ خالِيَةٍ ... قَد أَقفَرَت وَلَها بالكُفرِ عُمرانُ

حَيثُ المَساجِدُ قَد صارَت كَنائِس ما ... فيهِنَّ إِلّا نَواقِيسٌ وصلبانُ

حَتّى المَحاريبُ تَبكي وَهيَ جامِدَةٌ ... حَتّى المَنابِرُ تَبكي وَهيَ عيدَانُ

لِمثلِ هَذا يَبكِي القَلبُ مِن كَمَدٍ ... إِن كانَ في القَلبِ إِسلامٌ وَإِيمانُ

أما حديث العقل عن حضارة الأندلس.

نظرة الإسلام للجمال

تستطيع أن تقول إن نظرة الإسلام للكون كله تقوم على عنصرين أساسيَّين: النفع، والجمال.

إذا تتبعت آيات القرآن فستجد العنصرين متلازمين، وكأن القرآن يلفت نظر المسلم إلى البعد الروحي والجمالي للكون بجوار الجانب النفعي في آن معًا.

فالأنعام ليست للركوب والانتقال فحسب، ولكن في النظر إليها متعة وجمال وراحة: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (النحل: 5 – 8).

والسماء ليست سقفًا للكون فحسب، بل هي زينة وجمال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ (الصافات: 6) ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ (ق: 6).

والبحر ليس للانتفاع فحسب، بل لاستخراج الحلية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا ...﴾ (النحل: 14).

والثمر ليس للأكل فحسب، بل للنظر والمتعة: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ...﴾ (الأنعام: 99).

فليس الكون وما حوى في نظر الإسلام مجرد تلبية الضرورات النفعية، بل أيضًا تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني، ونظرة الإسلام للجمال لا تقف عند حد المنظور والمسموع والمحسوس، بل تتعداها إلى الخُلق والسلوك:

فالمتأمل في خطاب القرآن الكريم يلاحظ أنه يصف العديد من الأخلاقيات بوصف الجمال، مثل: «الصبر الجميل» و«الصفح الجميل» و«الهجر الجميل» و«السراح الجميل»، وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم جملني بالتقوى، وزيني بالحلم.»

ويوجه السلوك الإنساني وفق الذوق الجمالي: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ..﴾ (لقمان: **19**)

و«تبسمك في وجه أخيك صدقة».

ولأن أداة الوصول لأسرار الجمال هي يقظة الروح والحواس؛ لذلك جاءت آيات القرآن تدفع الإنسان دفعًا لإعمال كل ملكاته للتفكر والنظر والتدبر في آيات الكون، وتستثمر كل مناسبة لدعوة الإنسان لاستعمال حواسه الإدراكية فيها.

وعليه، فإن نظرة الإسلام للجمال تتغلغل في كل دقائق حياتنا فيما تقع عليه العين، أو تسمعه الأذن، أو تشمه الأنف، أو تلمسه الحواس، وكذلك في كل خلق إنساني نبيل يتمثل في حسن المعاملة، وفي كل سلوك إنساني يتعود عليه الإحسان في كل شيءٍ من أعماله اليومية.

ومن تمام تبيان خصوصية نظرة الإسلام للجمال نؤكد على أن نظرة الإسلام للجمال لا تنفصل أبدًا عن الأخلاق:

فالقيمة الجمالية تنضبط بالقيمة الخلقية، والقيمة الخلقية تتزين بالقيمة الجمالية.

نقول هذا ونحن على علم كامل بأن فلسفة الجمال بالمنظور الغربي، تجعل منه قيمة قائمة بذاتها لا تقبل التوجيه، أو هيمنة القيمة الأخلاقية، بل إن القيمة الجمالية في المفهوم الغربي قد تفقد قيمتها ومعناها إذا هيمنت عليها القيمة الأخلاقية، وهذا أيضًا يمثل نقطة نزاع جوهرية في حرية الفن، بين من يتبنى فلسفة الجمال بالمنظور الإسلامي، ومن يتبناها بالمفهوم الغربي.

وختامًا: نرى أن حركة أمتنا نحو النهضة المنشودة لن تؤتي ثمارها بغير الاهتمام بهذا الجانب الجمالي المنضبط بالخلق والمنعكس على السلوك؛ لأن المجتمع الذي يعتاد على الإحساس بالجمال سيتولد عنده نزوعٌ إلى الخير والإحسان في كل أوجه نشاطه وسلوكه.

■■■

الدين.. أفيون أم ثورة؟!

العبارة الشهيرة لكارل ماركس: «الدين أفيون الشعوب» ليست عبارة من وحي الخيال، ولكنها صدى لبعض الواقع.

عبر التاريخ وظفت السلطة الزمنية الدين لخدمة أغراضها، بل وتحالفت مع المؤسسات الدينية وتقاسمت معها النفوذ.

حدث هذا في الإسلام من خلال ما يُعرف بعلماء السلطان، الذين يصدرون الفتاوى حسب رغبة السلطان، ويحولون المعنى الحقيقي للصبر إلى الصبر على الذل، والإيمان بالقدر إلى الرضا بالواقع، وطاعة ولي الأمر إلى عبودية للمستبد، ...، .

وحدث في المسيحية لدرجة اعتبر فيها «ول ديورانت» في موسوعة «قصة الحضارة» أن الدور الذي لعبته الكنيسة في تثبيت دعائم الملكية في العصور الوسطى أقوى من دور الجيش والشرطة، وكذلك إيران قبل الإسلام استغل حكامها الساسانيون سدنة النار المقدسة (المجوس) كجزء من منظومة الحكم، وذهب كثير من المفسرين إلى تعريف «هامان» بأنه كبير كهنة معبد آمون.

ولكن: هل هذا هو الدين؟

نعم، إنه الدين الأفيوني الذي يخدر الشعوب، ويريده الطغاة والمستبدون، وكذلك يريده الحاشية المستفيدة ورجال الدين المزيفون، ويريده أيضًا أصحاب الأهواء، والجهلة، والمتقاعسين عن الدور الرسالي في الحياة.

الدين الحق لم يأت لتبرير الوضع القائم، والرضا به، وتعبيد الناس للسلطة الزمنية.

الدين الحق هو ثورة لتحرير الإنسان وحفظ كرامته، وإعلاء قيمته، وتخليصه من كل أشكال العبودية والظلم.

هكذا كانت سيرة رسل الله ورسالتهم، والتي تُوجت بالرسالة الخاتمة «الإسلام».

دين لا يدعوا أتباعه لعدم الظلم فحسب، بل يدعوهم لمقارعة الظالمين، والأخذ على أيديهم، ويُحَذر من مجرد الركون للظالمين.

دين يكره للإنسان الاستسلام للضعف والخنوع والذلة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: **97**).

دين يكره للإنسان أن يعيش تافهًا منزويًا لا مباليًا: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» و«من رأى منكم منكرًا فليغيره.....»

دين يعتبر الساكت عن الحق شيطانًا أخرس، ويعتبر أعلى درجات الشهادة: «كلمة حق عند سلطان جائر».

دين يرى اليأس سبيلًا إلى الكفر: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

هل رأيتم دينًا ثوريًّا مثل هذا الدين؟!!

دين يطبع نفوس أتباعه على العزة والكرامة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

دين حتى في ضراعته ودعائه: « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل».

هذا الدين لا يتذوقه ويحيا به ويرفع رايته ويؤدي رسالته إلا نفوس ثورية، تعشق الحرية والعزة والكرامة، وتأبى الضيم والذل والضعف واليأس والاستكانة.

لهؤلاء الصفوة المختارة من البشر، القلة المستضعفة القابضة على الجمر، والعاضَّة بنواجذها على أصول الدين؛ تأتي البشارة ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾.

■■■

«داعش» موجة صليبية رابعة

بعد سلسلة من الحروب الصليبية، اقتنع الغرب بنصيحة لويس التاسع بأنه لا يمكن الانتصار على المسلمين في حرب مباشرة، ولكن مفتاح الدخول للعالم الإسلامي هو إحداث شروخ في حائط الصد أمام أطماع الغرب، وهو الإسلام.

وعلى هذا المنهج بدأت الحملة العدائية الثانية تحت اسم «الاستعمار»، حيث حاول الاستعمار زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس أبنائها، وتأصيل النظرة القومية أو الوطنية الضيقة لضرب الوحدة الإسلامية، واستحداث طبقة من أهل البلاد تتحدث بلسان الغرب وتفكر بطريقته، وأفسحت المجال لهذه الطبقة للهيمنة على التعليم والثقافة والمناصب الحساسة.

ولم يترك الاستعمار بلادنا إلا بعد أن سلمها لأيدٍ أمينة على تنفيذ خطته التي رسمها، وقام خلفاء الاستعمار بتنفيذ الموجة الثالثة من الحرب على الإسلام بأيدي المسلمين.

وتحت الحكم الديكتاتوري لخلفاء الاستعمار؛ أضحت بلادنا مستنقعًا ينمو فيه الفقر والجهل، والمرض والأمية، والتخلف في كل المجالات.

وحين انتفضت الشعوب للتخلص من الديكتاتورية التي نفذت خطط الغرب بأمانة وإخلاص، بدأت الموجة الرابعة ضد العالم الإسلامي.

رأس الحربة في الموجة الرابعة وهي المنظمات الإرهابية المستترة بأسماء إسلامية، والحقيقة أنها مصنوعة على عين المخابرات الأمريكية وعملائها المحليين.

وآخر صيحات هذه المنظمات «داعش»، تلك المنظمة التي ظهرت مع تحقيق إنجازات للثورة السورية ضد نظام بشار، ثم ظهرت فجأة في العراق وتمددت بشكل سرطاني سريع ومثير للتساؤل، بل الشك والريبة، ولكن يبقى الهدف من هذه المنظمة المصنوعة على عين المخابرات الأمريكية بمساعدة المخابرات المحلية؛ هو:

- تشويه وسرقة ثورة أهل السنة في العراق وسورية.
- إنشاء نموذج فاشل يحمل اسم الإسلام.
- التمهيد لإعادة تقسيم المنطقة مع ترك فتيل الاشتعال جاهزًا بين مكونات التقسيم الجديد.
- إيجاد ذريعة جديدة؛ لتثبيت أركان الديكتاتوريات بادِّعاء محاربة الإرهاب.
- تشويه صورة الإسلام ذاته، وإنشاء حاجز نفسي جديد بين كثير من المسلمين والحكم الإسلامي.

هكذا نفهم «داعش»، وكل منظمة إرهابية على شاكلتها، فكلهم صنائع المخابرات الغربية، ولكن...

هل سنظل نحن شعوبًا مفعول بها!، بلا حول ولا قوة؟

لا أتصور ذلك، فهناك كتلة صلبة تتشكل داخل العالم العربي، هذه الكتلة أثبتت قدرًاعاليًا من الوعي والانضباط والثبات والتضحية، هذه الكتلة هي التي قدمت أروع نماذج الثورات السلمية المنضبطة، وهي التي قادت حراكًا ثوريًّا سلميًّا سنيًّا في العراق لم يهدأ طوال السنوات الماضية بأيدٍ التزمت السلمية برغم امتلاكها لسلاح يوازي سلاح الدولة، وهي التي قادت ثورة يمنية سلمية عظيمة قدمت التضحيات الجسام مع انضباط سلمي شديد لشعب لا تخلو فيه يد من سلاح.

هذا فضلًا عن الثورة المصرية المستمرة إلى الآن بسلمية وانضباط وصبر وثبات يدعو للثقة في أن المستقبل القريب سيهدم معبد الحقد والكراهية الذي تبنيه أمريكا والغرب، وللأسف بأيدي ذوي القربى.

وبرغم أن هذه الكتلة الصلبة تصارع أمواجًا عاتية من الديكتاتورية والعمالة والجهل والخنوع؛ فباسم الله قريبًا سيكون مجراها ومرساها.

■■■

مرافعة ممثل دولة إسلامستان

في مؤتمر اقتصادي عالمي ضم وفودًا من دول غربستان وعربستان؛ وقف ممثل دولة إسلامستان، وقال: حل المشاكل الاقتصادية يكمن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ (الأعراف: **96**).

نظر ممثلو الدول بعضهم لبعض ثم علت ضحكاتهم، وتوالت سخرياتهم: اجلس يا رجل.. نحن نتحدث عن العلم، وأنت تتحدث عن تلك الغيبيات والخرافات!.. كفانا تخلف ورجعية.

نظر إليهم الرجل بكل ثقة وثبات، وقال: ومن قال لكم إن ما أقوله ليس علمًا؟!

أليس وراء كل نظرية اقتصادية مرجعية فلسفية تقوم عليها؟!

أليست مرجعية "ماركس" و"إنجلز" فلسفة اشتراكية؟!، أليست مرجعية "آدم سميث" مرجعية ليبرالية؟!

إن كانت هذه هي المرجعية الفلسفية للنظرية الشيوعية والنظرية الرأسمالية، فإن هذه الآية هي عماد المرجعية الفلسفية لنظرية الاقتصاد الإسلامي.

إن عماد فلسفتنا الاقتصادية وبناءها الثقافي قائم على الإنسان المؤمن التقي، أليست الزكاة والصدقة والوقف والتكافل من ثمرات الإيمان والتقوى؟

أليس من مقتضيات الإيمان والتقوى في الإسلام؛ إتقان العمل وعمارة الأرض والمحافظة على البيئة ومواردها الطبيعية..، ؟

أليس من أركان الإيمان والتقوى؛ محاربة الربا والكف عن الحرام والامتناع عن الرشوة والمحسوبية والفساد...، ؟

لماذا تستكثرون علينا أن يكون لنا ذاتيتنا العلمية والفلسفية والثقافية؟!

أنتم ممثلوا دول غربستان في سبيل إخضاعنا لكم، وجعلنا أمة تأكل

فتات موائدكم، مارستم كل الوسائل لمحو شخصيتنا وذاتيتنا، وفي سبيل ذلك حقَّرتم ديننا وتاريخنا وتقاليدنا.

وأنتم ممثلوا عربستان وقعتم في الفخ وبلعتم الطعم، فقدتم ذاتكم، احتقرتم أنفسكم وتاريخكم وعقائدكم، فقدتم ثقتكم بأنفسكم وإيمانكم بقدراتكم، رضيتم بمنزلة التابع الذليل الذي يأكل فتات الموائد.

أما أنتم زملائي من ممثلي دول إسلامستان، فأنتم أيضًا وقعتم في الفخ، فمن شدة الحملة عليكم صرتم تخشون الجهر بـ (قال الله وقال الرسول) خشية أن يقال عنكم إرهابيون ورجعيون ومتخلفون وتجار دين.!

وختامًا، أعيدها على مسامعكم أيها الحاضرون الساخرون: إن حل مشكلاتنا الاقتصادية يكمن في هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ (الأعراف: **96**)

وأزيدكم بما أوحى به الله تعالى لسيدنا نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ (نوح: **10 – 12**).

نعم: استغفروا ربكم من الظلم والبغي والعدوان الذي ملأ دياركم.

استغفروا ربكم من الفساد الذي ظهر في بر بلادكم وبحرها.

نظر وفود دول غربستان لبعضهم ثم قال ممثلهم: "هذا كلام جديد على أسماعنا، وهو كلام جدير بالنظر والتمحيص..."

وصفق طائفة من ممثلي عربستان لكلام ممثل دولة إسلامستان، وطائفة آخرى من ممثلي دول عربستان غادروا القاعة معترضين– وهم يقولون:

﴿....... ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: **32**)!!

حكايات في العشق والغرام

«أموت وفي نفسي شيءٌ من حتى»!!

عبارة قالها على فراش الموت عالم لُغوي؛ حيث عبر عن عشقه لـ"حتى" الذي لازمه طيلة حياته، ولم يفارقه وهو على فراش الموت.

هذا العشق يتخذه البعض سبيلًا للسخرية، ولكن حكمة الله اقتضت أن يُسَخِّر أناسًا في خدمة البشرية سواء في مجال العلوم والفنون، أو في مجال الفضيلة والقيم؛ ليكونوا نماذج في العشق النبيل.

وأذكر في مجال الفنون الخطاط التركي "حامد الآمدي"، واحد من عظماء فن الخط العربي ورائد من رواده في القرن العشرين، عشق هذا الفن وتبتل في محرابه وتخرَّج على يديه أجيال خلال عمره الذي تجاوز التسعين عامًا، وقدم خلاله آيات من الفن والجمال والأصالة.

(يَروي أن رفيق دربه في هذا الفن "الحاج حليم" زاره في المنام بعد موته، ورآه في حلة بهية يطوف في الجنة، فسأله: هل في الجنة عندكم أوراق وأقلام وأحبار؟!)

إلي هذا المدى بلغ عشقه لفنه فتمنى أن يلازمه في دار الخلد.!!وينقلنا سيدنا "بلال" لنوع جديد من أنواع العشق، فعلى فراش الموت، في تلك اللحظة العصيبة، والفتنة المهولة، وألم فراق ما نعلم، والرهبة من ملاقاة ما لا نعلم.

في تلك اللحظة، هاجت أشواقه، وتجلى عشقه، فهتف:

"غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وصحبه"

الله.. الله.. الله..

عشق جميل.. شعور نبيل.. حياة سعيدة.. ميتة هنيئة..

ويسمو العشق النبيل بالإنسان، إلى عشق الجمال الذي لا يزول، والكمال

الذي لا ينقص، والحاضر الذي لا يغيب.

فلا تحلو الحياة إلا بقربه، ولا يتم الرضى إلا برضاه.

فليتَكَ تحلو والحـيـاةُ مـريـرةٌ ... وليتكَ ترضى والأنـامُ غِضابُ

وليتَ الـذي بيني وبينكَ عامرٌ ... وبيني وبـينَ الـعـالمينَ خـرابُ

إذا صحَّ منكَ الودُ فالكلُّ هين ... كـلُّ الـذي فـوقَ الـتراب تـرابُ

عشق يطير من أجله النوم من عيون العُشاق: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (السجدة: **16**).

عشق يجعل محبوب الحبيب حبيبًا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ..﴾ (الحجرات: **7**).

عشق نتسامى به عن الدنايا، نترفع به عن الخطايا، نصفي به قلوبنا، نزكي به نفوسنا.

فلربما بنظرة رضا تصير حِكايةً من حكايات العشاق، بل ربما حملنا الراية وصرنا علمًا من أعلام العشاق.

نسخْتُ بحَبّي آية العِشْقِ من قبلي ... فأهْلُ الهوى جُندي وحكمي على الكُلّ

وكـلُّ فَتًـى يهـوى فـإنّي إمَـامُـهُ ... وإني بَريءٌ من فَتًى سامعِ العَذْلِ

ولي في الهـوى عِلْمٌ تَجِّـل صفاتُهُ ... ومن لم يُفَقّهه الهوى فهْو في جهل

ومن لم يكنْ في عِـزّةِ الحبِّ تائهًا ... بحُبّ الذي يَهوى فَبَشّرْهُ بالذّل

إذا جـادَ أقــوامٌ بـمالٍ رأيْـتَـهُـمْ ... يَجودونَ بالأرواحِ مِنْهُمْ بِلا بُخل

وإن أودِعوا سِرًّا رأيتَ صُدورهم ... قُـبـورًا لأسرارٍ تُـنَـزّهُ عن نَقلِ

وإن هُـدّدوا بالهَجْرِ ماتوا مَخافَةً ... وإن أوعِدوا بالقَتْلِ حنّوا إلى القتل

لَعَمري هُمُ العُشّاقُ عندي حقيقةً ... على الجِدّ والباقون منهم على الهَزْل

ثانيـــًا : السياسة والاجتماع

معركة الوعي

نحن في عصر العلم، ومعركة العصر بين القوي والضعيف، سلاحها العلم، وهدفها سيطرة القوي على موارد الضعيف، ووسيلتها السيطرة على العقول، وإذا كان الإنسان جسدًا وروحًا وعقلًا، أو مادة وشعورًا وفكرًا ؛ فإن المجتمعات كذلك، وإذا تفحصت حال أمتنا لوجدت أن نقطة ضعفنا ليست في المادة (الموارد) ولا في الشعور (شعوب متدينة بطبعها كما يقولون)، ولكن مشكلتنا بشكل أساسي في الفكر، وإذا كانت المادة يلزمها موارد وعلماء وسواعد، والروح يلزمها أديان وعقائد وقادة روحانيين؛ فإن العقل والفكر يلزمه نخبة مثقفة تمثل عقل الأمة وشراعها الفكري، وهذا بالضبط ما قام به علماء النهضة الأوروبية، فعلماء من أمثال «فرنسيس بيكون» و«ديكارت» وأمثالهم لم يكونوا من أصحاب الكشوف الجغرافية ولا الاختراعات العلمية، ولكنهم وضعوا مناهج للتفكير العلمي، كانت هي البناء الفكري للنهضة العلمية والصناعية والاجتماعية.

أما في عالمنا العربي فللأسف نخبتنا المثقفة كانت في قطاع كبير منها جزءًا من المشكلة وليس الحل، فنقلتنا من أمة منهجها الفكري الذي أسسه القرآن: «تفكروا»، «تدبروا»، «انظروا»، «تبينوا» والذي قامت عليه نهضة الحضارة الإسلامية إلى السفسطة والجدل البيزنطي؛ إلَّا نفر قليل نحن في أمس الحاجة لاستحضار جهودهم واستكمالها، من أمثال المفكر الجزائري

«مالك بن نبي» الذي شخص مرضنا الفكري بمصطلح: «القابلية للاستعمار»، والمفكر الإيراني «علي شريعتي» بمصطلح «النباهة والاستحمار».

كلاهما- كنموذج- ومعهم نفر من المخلصين من المثقفين خاضوا معركة الوعي التي تقف أمام خطة التجهيل والإلهاء التي مارسها الاستعمار، ثم ترك مهمته لوكلائه الذين مازالوا يمارسون نفس الدور.

فمعركة التجهيل والإلهاء مازالت هي رأس الحربة في السيطرة على عقل الشعب؛ بهدف السيطرة على موارده، وإجهاض أي محاولة للنهوض.

معركة تدار بأسلوب علمي، ويقف وراءها ثلة من علماء النفس والاجتماع والإعلام فضلًا عن أجهزة المخابرات والدعم الدولي.

معركة تدار من خلف الستار، لها بهلوانات في المسرح السياسي، وأراجوزات في المجال الإعلامي، يتعدد محتوى خطابهم وطريقة أدائهم لتناسب الشرائح المستهدفة، فطريقة الأداء تتعدد: بهدوء، بسخرية، بتشنج وعصبية، بهبل وعبط.

فمن يدعي أنه من النخبة المثقفة، فهذا مجال جهاده: معركة الوعي، ثم الوعي، ثم الوعي.

هي نقطة الضعف التي منها أُخذنا، وهي نقطة القوة التي منها سنعود.

■■■

الشعب بين.. الإلهاء والتجهيل

الإلهاء أشبه ما يكون بحركة الثور في حلبة مصارعة الثيران، والتجهيل أشبه ما يكون بحركة الثور معصوب العينين وهو يدور في الساقية.

الثور عنصر مشترك في الحالتين!!

الثور اللاهي في لعبة مصارعة الثيران، يحركه المنديل الأحمر، يستخدم المصارع مهارته في إلهاء الثور بالاتجاه نحو المنديل الأحمر، وهو يخفي السهام التي في يده، ينهك الثور بالهدف الوهمي، وكلما انشغل الثور بالمنديل الأحمر غرس المصارع في رقبته سهمًا، ويظل يلهيه بالهدف الوهمي ويغرس في رقبته سهامه، حتى يسيطر عليه تمامًا، ويخر صريعًا وسط صيحات المتفرجين.

أما الثور الجاهل، فهو معصوب العينين، يدور في الساقية، لا يدرى من أمر نفسه شيئًا، ولا يدري إلى أين يسير!، وقد يتصور من جهله أنه يسير للأمام، والحقيقة أنه يدور في حلقة مفرغة، كلما تحرك يعود للنقطة التي منها بدأ.

هذه هي قصة الإلهاء والتجهيل التي تمارسها الدول الكبرى ضد أمتنا، وهي ذات القصة التي تمارسها الأنظمة المستبدة ضد شعوبها.

والسؤال: هل نحن في حاجة لضرب أمثلة نوضح بها المناديل الحمر التي أنهكتنا وأبعدتنا عن العدو الحقيقي الذي يقف من ورائها، ويستغل غفلتنا عن هدفه الأساسي، ويغرس في المجتمع سهامه حتى يخر صريعًا تحت سيطرته، ونظل أمة جاهلة لا تستطيع التحكم في مواردها، ولا تحترم أبسط حقوق مواطنيها؟.

هل نحن في حاجة لضرب أمثلة نوضح بها العصابة التي تعمي أعيننا، وجعلتنا ندور في حلقة مفرغة، كلما تحركنا للأمام يأخذنا نفس المصارع الذي أنهكنا بمنديله الأحمر؛ ليعيدنا من حيث بدأنا من سنوات طوال؟.

ثقتي في فطنتك عزيزي القارئ، تجعلني أتركك لإسقاط ما قلته على الواقع الذي نعيش فيه، فأنا وأنت «في الهم شَرْق»

وأعيد وأذكر أن معركتنا هي: معركة الوعي، ثم الوعي، ثم الوعي.

■■■

لنتفق أولًا أنه ثور

طالما أننا لم نتفق حتى الآن على أن الثور لا يُحلب، ففريق يقول «ثور» وفريق يقول: «احلبوه»، فمن العبث أن نبحث عن اتفاق أو حتى لغة مشتركة توصل يومًا لاتفاق.

مسألة قد تبدو بسيطة، ولكنها في غاية الأهمية، ولندع لأنفسنا فرصة لمناقشتها مناقشة فكرية هادئة ورصينة.

فالاختلاف في الأفكار ووجهات النظر حتى لو وصل للتصادم، فإنها ستتلاقح لتنتج أفكارًا أكثر نضجًا ونفعًا.

أما الاختلاف حول مدلول الألفاظ فسينتج شقوقًا تتسع كلما تجدد النقاش، وسينتج شقوقًا جديدة مع كل حدث جديد.

هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نقف عندها ونُعمل فيها الفكر، فنحن كمجتمع عربي فعلًا؛ مختلفون ليس حول أفكار ووجهات نظر، بل نحن مختلفون حول مدلول الكثير من الألفاظ.

والألفاظ التي نحن مختلفون حولها ليست ألفاظًا ثانوية، أو ألفاظًا تم تعمد تعميمها كالإرهاب.

نحن مختلفون حول مدلول لفظ «المواطنة»، فتجد طائفة من الشعب ترى أن حق المواطنة مكفول لمن يتفق معهم في الرأي، أو من يكون خادمًا مطيعًا للحكومة، وهذه الطائفة تعتبر نفسها امتلكت مفاتيح الوطن، تفتحه لمن تشاء وتغلقه وتهدد بسحب الجنسية ممن تشاء!!

مختلفون حول مدلول لفظ «الحكومة».

هل هي: «حكومة الشعب» أم أننا «شعب الحكومة»!!.

فطائفة من الشعب اتفقت مع رأي حكامنا الراشدين على أننا شعب قاصر والحكومة أدرى بمصلحتنا، والحكومة هي التي تحاسب الشعب، بل وتحدد مستواه هل هو شعب ناضج يستحق الديمقراطية، أم أننا شعب لم ينضج بعد على حد تعبير «أحمد نظيف» رئيس وزراء مصر السابق؟!!

نحن يا سيدي مختلفون حول مدلول لفظ «الإنسانية» بحدودها الدنيا من صيانة العرض، وحقن الدم، وحفظ الكرامة، وضمان الحرية، وعدم قبول أي مسوغ يتعارض مع الحقوق الفردية تحت مسمى المصلحة العليا، وأمن الدولة وخلافه!!.

الجرح النازف في غزة أثبت أننا مختلفون حول مدلول لفظ «المقاومة» الذي اتفقت فيه كل الشرائع التي عرفتها البشرية، بل وأقرته القوانين الدولية التي أعطت الحق لكل شعب تم الاعتداء عليه أو احتُلت أرضه في مقاومة المعتدي المحتل بكل ما ملكت يداه من أسلحة.

إذًا، لماذا يتغير مدلول اللفظ حين تكون المقاومة من شعب مسلم محتل ضد غاصب صهيوني؟!!

وإذا لم نتفق على مدلول هذا اللفظ الإنساني البسيط، فعلام سنتفق؟!!

أرجو أن أكون قد ساهمت بوجهة نظري هذه في فتح باب لمدخل هادىء للنقاش المثمر بين المختلفين، فضلًا عن فتح مدخل للمفكرين المخلصين من أبناء الأمة للتوسع في هذا الباب، فوظيفة المفكر اختراق السطوح والغوص في الأعماق والوصول لجذور المشاكل؛ ليفتح الباب أمام الحلول الجذرية.

حمار أنطاكية

«جبران خليل جبران» أراد أن يوصل معنى من خلال حوار فلسفي خيالي بين حمارين (الحفيد والجد)؛ حيث مرَّ كلاهما فوق جسر أنطاكيا، فوجدا حجرًا مكتوبًا عليه: «هذا ما بناه الملك الروماني....»، فدار حوار بين الحمارين، عرف فيه الحمار الحفيد أن الذي نقل أحجار الجسر هم أجداده الحمير، فوجه سؤاله للحمار الجد: لماذا لم يكتبوا «هذا ما بناه حمير أنطاكيا؟!». معنى فلسفي عميق يستحق الوقوف عنده.

وإيضاحًا لهذا المعنى نقول: إنه ليس من حق حمير أنطاكيا أن تُكتب أسماؤهم في لوحة شرف الجسر؛ لأن مسلوب الإرادة يحمل الأحجار على ظهره سواء برغبته أو رغمًا عنه، وفق أهداف وضعها غيره، مسخرًا إياه لتنفيذها، وليس وفق هدف يضعه هو لنفسه، أو يتوافق فيه مع جماعة من البشر يحققون به أهدافًا جماعية مشتركة، أو يتوافق مع بني وطنه خلف قيادة رشيدة تحترم حقوقهم لتحقيق أهداف وطنية يتوافقون عليها.

فالحيوان يسير وفق هدف صاحبه، والعبد يسير وفق هدف سيده، وكل مسلوب الإرادة فاقد الوعي يسير وفق أهداف وضعها غيره رغبة في تسخيره، فإذا كان الجمل على ضخامته وقوته، يستطيع طفل صغير أن يروضه ويوجهه، فهذا طبيعي رغم فارق الحجم والقوة؛ لأن الطفل هنا هو صاحب الإرادة والهدف، والجمل مجرد أداة سخرة.

لذلك؛ فلا تعجب حين تعلم أن بريطانيا احتلت مصر والهند والعراق وغيرهم

في وقت واحد برغم أن تعداد الشعب الانجليزي نقطة في بحر هذه الشعوب المحتلة، ولكنها نفس علاقة الطفل والجمل، هذا ذو إرادة وذاك مسلوب الإرادة، هذا ذو وعي وهدف، وذاك فاقد الوعي يسير لتنفيذ أهداف من يسوقه.

ولذلك ليس للشعوب المحتلة حق في أن توضع في لوحة شرف تأسيس إمبراطورية بريطانيا العظمى؛ لأنهم فقط ينقلون أحجارًا.

حتى أبناء المستعمرات الذين خدموا السيد البريطاني بجدٍّ وإخلاص، ومنهم من قاتل في صفوف البريطانيين ضد شعبه، ومنهم قضاة حكموا بالإعدام على الثوار من شعبهم، ومنهم ساسة ورجال أعمال طوعوا البلاد لخدمة المستعمر، كل هؤلاء ميزتهم فقط عن فاقدي الوعي من مواطنيهم أنهم حمير المقدمة، وغيرهم ممن رضي بالاحتلال حمير المؤخرة.

وفي المقابل تجد مدينة بمساحتها وعدد سكانها تعادل حيًّا من أحياء القاهرة، تتحدى الاحتلال رغم المفارقة الهائلة في الإمكانات، بل وتتحدى عالمًا مات ضميره، وأخًا تخلى عن قضيته، وتمتلك إرادتها، وتضع أهدافها، وتصنع سلاحها، وتدعم بظهيرها الشعبي طليعتها المقاومة.

الخلاصة: أن أي إنسان أو شعب يسير في الحياة فاقد الوعي، مغمض العينين، مسلوب الإرادة؛ فسيكون مصيره مصير حمير أنطاكيا، وظيفتهم فقط نقل أحجار لبناء صروح غيرهم.

وحالة حمار أنطاكية لا ترتبط بكثرة عدد أو ثروات (بريطانيا نموذجًا)

ولا ترتبط بقوة ولا ضعف مادي (غزة نموذجًا)

ولكنها ترتبط بامتلاك الإرادة، ولا إرادة بغير: دافع يحفزه إيمان، وهدف يحميه وعي، وعمل تتقدمه تضحية.

خطر تهييج وتحريض الجماهير

لماذا احتشدت الجماهير للتحريض على صلب المسيح؟

لماذا شتموه وآذوه وأدموه؟

أي جرم ارتكبه، وأي أذى سببه لهم؟

لا تسل يا عزيزي، إن الجماهير الغاضبة الهائجة لا عقل لها!!

ومن أي شيء غضبت؟ من دعاية وتحريض!، وأوهام وتخليط، وجهل وتعصب.

زعماء اليهود يقولون عليه كافر، وقياصرة الرومان يقولون عليه إنه يهدم أركان دولتهم.

إذًا، أيتها الجماهير أنه كافر ومتطرف، من.... المسيح؟!! نعم!!

هذه الجماهير الهائجة استعذبت رؤية المعذبين، وتبادلت التحريض مع قادتها، فـ(بيلاطس) الوالي الروماني يأمر بجلد المسيح لعله يرضي الجماهير الهائجة، ولكنهم يرفضون ويزيد هياجهم ويطلبون صلب المسيح!!

هذه الجماهير التي تحركت بالتهييج والتحريض قوضت حضارات، وهدمت أممًا، وأبادت بلادًا، وارتكبت أكبر مذابح التاريخ.

لم يقتصر الأمر على التاريخ السحيق، بل هو قابل للتكرار حيثما توفرت أركانه، فالجماهير الهائجة خلف «هتلر» و»موسوليني» دمرت أوروبا، وامتد شررها للعالم؛ولذلك اهتمت الدراسات النفسية الحديثة بدراسة نفسية

الجماهير، وذهبت تلك الدراسات إلى أن: «النفسية الجماعية لفئة ليست مجموع الحالات النفسية لأفرادها» بمعنى أن الفرد حين يدخل في دائرة الجماهير يتخلى كثيرًا عن صفاته الشخصية، وتناله عدوى صفات الجمهور، فيقبل ما كان لا يقبله وهو فرد منعزل عن هذه الجماهير، فقد تجد باحثًا وأستاذًا جامعيًّا تربت عقليته على الوصول للنتائج عبر مقدمات منطقية، ولا يقر بالنتيجة بغير تجربة أو دليل؛ تجده ينخرط في حالة الجمهور ويتقبل ما لا يقبله أبسط عقل، وتفاجئ به يناقشك في ترهات «عكاشة»وكأنها نظريات علمية أو حقائق كونية!!

وتجد إنسانًا عطوفًا رحيمًا يتألم من رؤية طائر يُذبح، وبرغم ذلك يشاهد مشاهد القتل والسجن والملاحقة لإخوانه في الوطن دون أن يتحرك له ساكنٌ، وقد ينقلب إلي مشجع ومحرض!!

ما الذي أوصلهم لهذا!؟

لأنهم وقعوا تحت تأثير حملة تهييج ممنهجة، استسلموا لها، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الحقيقة؛ ففقدوا شخصيتهم لصالح شخصية الجمهور الهائج.

ووسائل تهييج الجماهير مكررة عبر التاريخ، وركائزها: التأكيد، والتكرار، ثم تترك العدوى بين الجماهير لتفعل فعلها.

فعلى سبيل المثال خبر مثل: بيع حلايب وسيناء وقناة السويس، يتم تناوله وكأنه حقيقة تجاوزت أن تبحث لها عن دليل، ولزيادة التأكيد يتم القفز لدراسة الآثار المترتبة عليه، والأضرار الخطيرة التي تحدق بالوطن من هذا البيع الذي أوشك أن يتم، والجريمة التي يرتكبها الرئيس في حق الوطن !!

ثم يأتي التكرار، فتجد نفس الخبر في كل القنوات الفضائية بالتزامن، وتوزيع الخبر عبر هذه القنوات باتفاق ليغطي ساعات الذروة للمشاهدة،

وبالعدوى المنتقلة بين الجماهير؛ ينتشر الخبر، ويسيطر على جمهور المتابعين بلا فرق بين حملة أعلى الشهادات وأقلها.

من أجل خطورة تهييج الجماهير بدواعي الحقد والكره والتعصب، وما تسببه من تدمير للأوطان.

سنَّت الدول المتقدمة قوانين تمنع الحض على الكراهية، وتمنع التمييز العنصري، وتتعامل بكل صرامة مع هذه الجرائم، لدرجة أن البرلمان الأوروبي اجتمع ليرفع الحصانة عن «مارين لوبين» زعيمة الجبهة الوطنية اليمينية بفرنسا؛ لوصفها مظهر صلاة المسلمين في شوارع فرنسا بأنه احتلال.

والتمييز العنصري ليس خاصًّا باللون والعرق والدين فحسب، بل يدخل ضمن إطاره (حسب البيان العالمي لحقوق الإنسان) التوجه السياسي.

أما أمتنا، فهي تعيش في حالة خطر داهم يهدد مستقبلها ووحدتها؛ بسبب حملة كراهية وعنصرية منظمة يقودها مجرمون بالمعنى الإنساني والقانوني والوطني، ولا صلاح للوطن أبدًا طالما هؤلاء المجرمون ومن يحركهم طلقاء يمارسون دورهم التخريبي.

■■■

هل تدرون علام تقاتلون؟!

الحرب على أشدها، ونحن العرب وقودها، وديارنا مسرحها، ودماؤنا مهرها، ومقدراتنا ثمنها.

وبرغم أننا القاتل والمقتول، الجاني والضحية، فجمهور العرب يصفقون ويهللون، ولا يدرون.. علام يقاتلون؟!

إنها صيحة حرب أطلقها بوق كبير، فتلقفتها أبواق صغيرة، تردد صداها في كل شبر من أرضنا: "الحرب.. الحرب.. الإرهاب.. الإرهاب".

حرب تدور، ومع كل قطرة دم تسقط من مواطنينا تدور عجلة الاقتصاد هناك عند البوق الكبير، تدور الماكينات في مصانع السلاح، ويتم تجريب السلاح الجديد وتطويره، وإعادة بيعه لأطراف النزاع جميعًا.!!

مع كل صاروخ يحترق به بئر نفط عندنا، تعمل وراءه بورصات سوق النفط لتصب الأموال عند البوق الكبير، ثم ندفع نحن أجور خبرائه لإطفاء الحرائق وإعادة التشغيل!!...وهكذا.

دماؤنا تسيل، ممتلكاتنا تُدمر، آثارنا تُسرق، والأبواق الصغيرة هنا على شاشات التلفاز وعلى صفحات الجرائد؛ لا تسمع منهم إلا صيحة واحدة "الحرب..الحرب..الإرهاب..الإرهاب.."

إذا كان مرضنا هو الإرهاب، فهل رأيتم مريضًا سفيهًا يظل يصرخ ويكرر أنه مريض بكذا دون أن يُشخص المرض ويعرف أسبابه!؟، ويبحث عن علاجه؟!!

إذا كان لعلاج مرض الإنسان أطباء...، فلعلاج أمراض المجتمع علماء وكتاب ومفكرون، يشخصون الأمراض ويحددون أسبابها، ويقترحون علاجها.

فأين هم في بلادنا!؟

ستجدهم يا عزيزي على الشاشات وعلى صفحات الجرائد، "كورال" في فرقة موسيقية رخيصة يرددون بأمانة النوتة الموسيقية الموزعة عليهم، وأبصارهم متحجرة في اتجاه عصا المايسترو، كلهم يردد "الحرب..الحرب.. الإرهاب.. الإرهاب.."، أين تشخيص المرض وأسبابه؟

أين الحديث عن بيئة الظلم والقهر، وسوء توزيع الثروة، والبطالة والتهميش، واليأس من التغيير السلمي؛ التي ينمو فيها الإرهاب؟

أين الحديث عن العلاج بالإصلاح السياسي، ومقاومة الاستئثار بالسلطة والثروة؟

لا تسل يا عزيزي: فالكورال لن يقبض ثمنًا إذا شذ عن النوتة الموسيقية، وانحرفت عيناه عن عصا المايسترو.!!

يا سادة يا كرام، يا جمهور المتفرجين المحترمين، يا من تصفقون وتهللون وراء الكورال:

إنهم أشعلوا الحرب في قلوبنا وعقولنا قبل أن يشعلوها على أرضنا، لو اتسعت بالحب قلوبنا، واستنارت بالوعي عقولنا، واستقامت على طريق الحق والعدل خطانا، .. لما ضاقت علينا ديارنا، ولما صرنا نهبًا لأعدائنا.

■■■

إذا الشعب يومًا أراد الخراب

إذا الشعب يومًا أراد الخراب، فعنده وصفة مضمونة ومجربة.

هذه الوصفة باختصار هي: «تفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية»، فإذا كان أول عمل لتأسيس دولة وبناء حضارة، هو»بناء شبكة العلاقات الاجتماعية»، أي بناء وتنظيم العلاقة بين أفراد المجتمع ومكوناته القبلية والعرقية والدينية، بحيث تحفظ حقوق كل طائفة، وتحدد واجباتها تحت مظلة نظام مركزي للحكم والإدارة.

وبقدر ما يكون من توازن يحقق الرضا لمكونات المجتمع، بقدر ما يتحقق الاستقرار والانتماء وتوحد الجهود في خدمة الوطن.

وأول عمل ممكن أن يهدم دولة ويقوض حضارة، هو: «تفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية»، فيتحول الوطن المستقر المتوازن إلى مجتمع متناحر.

وبدلًا من تكامل الجهود لخدمة الوطن، تتصادم الجهود وتتشتت الطاقات، وتتوقف حركة التقدم، وقد تتفكك الدولة بغير رجعة.

لا أتصور أن هذا الكلام يحتاج إلى إثبات نظري؛ حيث نظرة واحدة على الحالة العراقية أو السورية تكفينا عن البحث، وإذا كان المدخل لتفكيك العراق وسوريا كان مدخلًا لتفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية بين مجتمع متعدد الأعراق والمذاهب والأديان؛فإن الحالة المصرية التي يراد إدخالها في هذا الشَرَك حالة فريدة من نوعها.

فالمجتمع المصري مجتمع مثالي في تجانس مكوناته، فهو ليس مجتمعًا قبليًّا، وليس متعدد المذاهب والأعراق، ولا يعتبر أبدًا متعدد الديانات حيث نسبة المسلمين 95 ٪ في مقابل 5 ٪ من المسيحيين، ورغم هذا هناك خوف حقيقي من تفكك المجتمع بما ينذر بانهيار الدولة، أو على حد تعبير الكاتب «فهمي هويدي» [مصر على أبواب العرقنة].

ولكن ما المدخل لهذا العمل الشيطاني؟

المدخل عجيب؛ لأن مصر بلد العجائب.

المدخل: سياسي!!، كيف؟

شيطنة فصيل سياسي يمثل حزبه «حزب الأغلبية».

أضف إلى العجائب أن أحزاب الأقلية الليبرالية، التقت إرادتها مع إرادة الدبابة؛ لإزاحة خصم سياسي يمثل حزب الأغلبية.

إذًا، نحن أمام حالة فريدة لتخريب مجتمع وتفكيك بنيته الاجتماعية، تقوم بها أحزاب أقلية فاشلة، فشلت في إزاحة خصمها السياسي عبر صناديق الاقتراع، فقررت حرق البلد بمن فيها والوصول بالدبابة وعلى أشلاء المواطنين إلى سدة الحكم.

تخيل درجة السفه والطيش التي وصل إليها هذا التيار الليبرالي العدواني في أعرق معاقله، حيث نشرت «جريدة الوفد» بعد الحادث الإرهابي الذي تعرضت له مديرية أمن الدقهلية، وأعلنت «منظمة بيت المقدس» مسئوليتها عنه: «إمهال الإخوان 24 ساعة لمغادرة المنصورة»!!

بماذا تسمي هذا النزق والسفه والطيش؟

هل تسميه تطهيرًا عرقيًّا؟ طائفيًّا؟ مذهبيًّا؟..لا.. لا.

إن أعجوبة من أعاجيب مصر أنه»تطهير سياسي«

نعم «تطهير سياسي» تقوم به طائفة من الفاشلين، يقودون المجتمع نحو الدمار والخراب، فحالة التحريض وإلقاء التهم بغير دليل، والحض على القتل والكراهية، وإعطاء الغطاء السياسي للاعتداء على أرواح وممتلكات المواطنين هي من أعمال»التطهير السياسي«، ولم نجد لها اسمًا سوى هذا الاسم؛ لأن هذه الحالة من السفه والجنون لم نره في العالم، فمثيله هو التطهير العرقي والمذهبي والديني، ثم يأتي أبرز ملامح عناوين مرحلة «تفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية»بتصنيف جماعة الإخوان المسلمين كجماعة إرهابية.

فأنت هنا لا تقطع جزءًا من نسيج الوطن (عرق- قبيلة- مذهب)، ولكنك تفكك خيوط النسيج.

■■■

عودة إلى القيم

تظل القيم النبيلة هي الأعمدة التي تحفظ بناء المجتمع، وتظل أيضًا هي ما يحفظ للإنسان إنسانيته، فالقيم النبيلة هي معشوقة النفوس الجميلة.

فالإنسان القديم نسج من خياله أساطير يجسد ويمجد بها القيم النبيلة، فأساطير اليونان والرومان نسجت قيم الحب في «كيوبيد» والتضحية في «بروميثيوس» والجمال في «فينوس».

والعرب من قِبَل الإسلام نسجوا قصصًا وأساطير تنقل لنا قيمة البطولة والنبل في قصة «عنترة بن شداد»، وقيمة الكرم في «حاتم الطائي»، وقيمة الحب العذري في قصة «عروة وعفراء»، بل حفظوا وتناقلوا قيمًااحترموها وخلدوها لجيرانهم من اليهود، فتناقلوا عبر الأجيال قصة وفاء «السموأل»، الرجل اليهودي الذي ضحى بابنه، ورفض تسليم دروع حُفِظت عنده كوديعة، واختار أن يُقتل ابنه مقابل حفظ الأمانة؛فخلد «الأعشى» هذا الموقف في شعره:

كنْ كالسموأل إذْ طاف الهُمام به في جحفلٍ كهزيعِ الليلِ جرار

فقال: غدرٌ وثكل أنت بينهما فاختر وما فيهما حظ لمختار

فشَكَّ غيَر طويلٍ ثم قال له: اقتلْ أسيرَكَ إني مانع جاري

هذه القيم جعلت المجتمع العربي الجاهلي يقيِّم»حلف الفضول» لنصرة أي وافد على مكة يتم الاعتداء عليه، وجعلت كفار قريش ينتظرون خروج النبي ﷺ خارج بيته في الهجرة ولا يقتحموا عليه داره، وجعلت «أبوجهل»

يتوارى خجلًا بعد أن انفعل ولطم «أسماء بنت أبي بكر».

ونحن في مجتمعاتنا.. هل تذكرون أول بيت في القرية، أو أوَّل منزل في العمارة دخله التليفزيون، وكيف تحول لمضيفة لاستقبال الجيران؟

هل تذكرون ظهور الثلاجات في البيوت؟، وتوزيع الثلج على الجيران قبيل الإفطار في رمضان؟، هل تذكرون مواساة أصحاب العزاء بالامتناع عن عمل كعك العيد، والاستماع للراديو والتلفاز؟، هل تذكرون مظاهر الحب والأخوة والتكافل التي ظللت مجتمعنا بظلها، وأمدتنا بدفئها؟

هذه هي القيم التي توارثناها جيلًا عن جيل.

هذه هي القيم التي حفظت لنا مجتمعنا من العطب، وظلت هذه القيم برغم فساد الحكم تتحدى أن يمتد الفساد إلى نسيج المجتمع.

وعلى مدار تاريخنا كله، كان نظام الحكم يعتدل أحيانًا، ويفسد كثيرًا، ولكن ظلت قيم المجتمع راسخة حتى في ظل فساد الحكم، وكانت الأمة بخير حتى في لحظات الانكسار والهزيمة.

أما إذا وصل سوس الفساد للدرجة التي تنخر في قيم المجتمع، ويضرب بعضه بعضًا، ويحرض بعضه على بعض، فأنت هنا تتحدث عن خطر يهدد السفينة بالغرق، وإن لم يفق المجتمع قبل فوات الأوان للخطر الذي يمثله ثلة من المفسدين الذين يتاجرون بعقول وعواطف الناس، وينتبه المجتمع لمخطط ضرب النسيج الاجتماعي للوطن؛ فسيكتوي الجميع بالنار، وسيكون كل مشارك أو ساكت عن هذه الجريمة شريكًا في تحمل وزرها.

■■■

معركة التحرر بين الأمس واليوم

إذا كان عنوان المرحلة التاريخية لأمتنا العربية الممتد من منتصف القرن التاسع عشر وحتى النصف الأخير من القرن العشرين؛ هو: معركة التحرر من الاحتلال، فإن عنوان المرحلة التاريخية الحالية من نهايات القرن العشرين وحتى مدى لا يعلمه إلا الله؛ هو: مرحلة التحرر من الديكتاتورية.

وحتى نستطيع قراءة المرحلة الحالية ونتنبأ بمستقبلها، يجب أن نقف على ملامح المرحلة السابقة.

تمكنت القوى العظمى- وقتها- في العالم من احتلال بلادنا بمساعدة السلطة الحاكمة- وقتها- ووطدت تلك القوى بالسلاح والمكر والمال؛ أركانها، وكونت شبكة مصالح من طوائف من الشعب قليلة العدد، ولكنها مؤثرة تخدم خطط المستعمر، وتساعده في امتصاص دم الشعب، فالوجهاء والأعيان ارتبطت مصالحهم التجارية مع المحتل، والجهاز الإداري للدولة كذلك، والأحزاب والوجوه السياسية دارت في فلك المحتل أكثر من ثلاثين عامًا لم يسجل التاريخ أي محاولة جادة لمقاومة المحتل.

في ظل هذا الجو القاتم ظهر شاب في العشرينيات من عمره اسمه «مصطفى كامل»، شق صوته جدار الصمت، جاب البلاد خطيبًا لإيقاظ الشعب النائم، حاربته سلطة الاحتلال، هاجمته الصحافة، غمزه السياسيون، سفهه الجهلاء، ثبطه الزملاء، كل من حوله يردد: نحن أمام قوى عظمى تحالف معها

الحكام وكبراء البلاد، نحن أمام شعب يقتله الجهل والفقر والمرض، شعب تعوَّد على العبودية منذ مئات السنين.......، فيرد على المثبطون: «إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصري ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة»، ويرد على العملاء: «لا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الشتائم تؤثر فينا، ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية»، ويرد على من يُسفِّه الشعب: «قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصري مما لا يليق بإنسان، ولكن أي شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التي سبقت الأمم كافةً في المدنية والعلم والأدب!؟، وأي رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذًا لشعوب البشرية..».

(هذه الفقرات وردت في خطبة له بالإسكندرية عام 1907)

أحدثت هذه اليقظة شروخًا في جدار اليأس والقهر والخوف، وبدأت روح اليقظة تسري في الجسد الخامد، وحاول المحتل وأعوانه التصدي لها في مهدها، فحين أصدر «الغاياتي» ديوانه «وطنيتي»: عام 1910 كتب مقدمة الديوان «محمد فريد» و»عبد العزيز جاويش»، فتم إحالة الثلاثة لمحكمة الجنايات بتهمة التحريض على العنف وإهانة هيئات الحكومة!!

وحكم (القضاة المصريون) على الثلاثة بالسجن مع النفاذ لمدد من ثلاثة أشهر لسنة، ومما جاء في الديوان: يشتكي الشعب والقضاة خصوم، فلمن يشتكي خصوم القضاة ؟!

وتمضي السنون وتزداد اليقظة وتزيد معها جرائم الاحتلال وأعوانه.

تسيل الدماء في ثورة 1919، ثم دماء الطلبة على كوبري عباس، وتتوالى حتى ظهور كتائب المجاهدين في مدن القناة، والتي كانت آخر مسمار في نعش الاحتلال، هكذا تدرجت مرحلة التحرر من الاحتلال من مرحلة الاستكانة إلى اليقظة إلى التحرر.

والمرحلة التاريخية التي نعيشها الآن هي محاولة وأد اليقظة لأمة استنامت على أنغام شعارات الديكتاتورية زمنًا طويلًا، ولن يقف في وجه اليقظة قوى دولية ولا متعاونون محليون، وهذه هي سنة التاريخ لشعب استيقظ من غفلة؛ ليصحح وضعًا شاذًّا جعل من أمتنا بقعة نشاذٍ على خارطة العالم.

وكما نحكم نحن اليوم على مواقف الأجيال السابقة في معركة التحرر من المحتل، ستحكم الأجيال القادمة على مواقف جيلنا في معركة التحرر من الدكتاتورية.

■■■

الزعيم

فكرة ساذجة تتعلق بها جماهير من الكسالى وضعاف العقول، تمامًا كما تتعلق الشعوب البدائية بالتعاويذ والتمائم ضد السحر، فجماهير الكسالى ترتاح للسير خلف الزعيم «الكاريزما»، ولا عقل لها يسأل عن خطة أو برنامج، فهذا ترف ينشغل به العقلاء، أما هم.. فشعارهم: «اخترناك وحانمشي وراك».

وهذه الجماهير النائمة على شعارات الزعيم والراقصة على أنغام الأغاني التي تمجده، يتحول معها المجتمع إلى حالة أشبه بحالة المرأة المغلوبة على أمرها، يتسلط عليها زوجها بالضرب والإهانة، ويتعمد أن تظل جاهلة، قليلة الحيلة، وفي حالة دائمة للخوف من المجهول في حالة غيابه، وهي لقلة حيلتها ترى ظله أفضل من ظل الحائط، وتظل متشبثة به رغم الإهانة؛ لأنه في نظرها يوفر الحماية، والحد الأدنى من متطلبات الحياة.

وهذا يفسر لك منظر الشعوب الصارخة الباكية خلف زعيم النكسة وخلف قائدنا إلى الأبد: «حافظ الأسد».

هذه الفكرة الخبيثة تسلطت على شعوب فقادتها إلى ما يشبه الانتحار الجماعي، تمامًا كما حدث في ألمانيا هتلر، وإيطاليا موسوليني.

لخطورة هذه الفكرة الخبيثة على المجتمع والدولة؛ حاربها الإسلام حربًا ظاهرةً، لا لبس فيها: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ** ﴾ (آل عمران: **144**).

فحين ترى نخبة المجتمع من رجال الإعلام والفكر والسياسة يروجون لفكرة الزعيم، فاعلم أنهم يقودون الأمة إلى التخلف والعودة للوراء، واعلم أنها نكبة وليست نخبة، وأنهم تجار نخاسة يبيعون الشعوب في سوق العبيد؛ لينالوا الحظوة عند الزعيم الجديد.

■■■

محاكمة «جاليليو»

مجموعة من الكهنة نصبتهم محاكم التفتيش قضاة يحاكمون الناس على أفكارهم، هذه العقول المتحجرة والضمائر الميتة، يحاكمون مواطنًا؛ لأنه أثبت علميًّا مركزية الشمس، وأن الأرض تدور حولها، معارضًا بذلك آراء أرسطو وما كان مستقرًّا من أيام قدماء اليونان، وما تبنته الكنيسة فيما بعد، وأنزلته منزلة القداسة الدينية، وهو مركزية الأرض.

اعتبرت المحكمة أفكار «جاليليو» هرطقة- زندقة- وحكمت عليه بالسجن، ومنعت كتبه من التداول.

تلقى الشعب هذه الأحكام بالبهجة والفرح، وعبروا عن فرحهم بإحراق كتبه!!

مجتمع عصر «جاليليو» كما وصفه «ول ديورانت» في كتابه «قصة الحضارة»؛ كان مجتمعًا متخلفًا يؤمن بالسحر والشعوذة، والكنيسة التي كانت أحد أركان السلطة ثبتت تلك الأفكار، فكان القساوسة يكتبون تعاويذ مختلفة يشتريها الناس لإزالة الآفات والحشرات الضارة من الحقول، وأخرى لتهدئة الأعاصير في البحر، أو لتطهير المباني من الأرواح الشريرة...، وفي عام 1604م أصدر البابا «بول الخامس»منشورًا بهذه الخدمات الكهنوتية!!

حالة انسجام تام بين السلطة والشعب: سلطة توزع التعاويذ، وشعب يؤمن بالخرافة!!

و«جاليليو» ينظر من تليسكوبه إلى العالم الفسيح، يرى المستقبل البعيد، يحلم بالخير لعالمه، يشق بمنظاره جدار الظلام والجهل والتخلف، ولكن..

ماذا يفعل «جاليليو» أمام سلطة سياستها تجهيل الشعب، ووسيلتها توزيع التعاويذ، وترويج السحر والشعوذة بسياسة الكبت والقهر، ومحاربة الأفكار، وملاحقة العلماء، خسرت أوروبا قرونًا جديدة من التخلف، ثم أفاقت بعد قرون، وردت الاعتبار لـ «جاليليو»، وأقامت له تمثالًا داخل الفاتيكان بعد وفاته بأربعمائة عام.

كيف تنظر أوروبا والعالم إلى هذه الصفحة السوداء في تاريخها!؟

كم خسرت أوروبا من هذه السياسة الخرقاء؟

ماذا لو استمرت هذه المحاكم حتى اليوم؟

هل ممكن أن تعود أوروبا مجددًا إلى هذه المحاكم؟!!

نعم..

إذا قررت الانتحار والعودة إلى الوراء، والانقلاب على الجغرافيا، والتحول من الشمال المتقدم المزدهر إلى الجنوب حيث عالمنا العربي أعجوبة زمانه في ترويج السحر والشعوذة.

■■■

ضد التغيير

صورتان متقابلتان، إحداهما للروائي الإيطالي «أومبرتو إيكو»، والثانية للكاتب الفرنسي الشهير «فيكتور هوجو».

الصورة الأولى يصور فيها «إيكو» في روايته «اسم الوردة» قصة دير في إيطاليا في القرن الرابع عشر، يصور من خلالها حالة البؤس والشقاء التي يعيشها الفلاحون: الأرض مقسمة بين الكنيسة والإقطاع، وكلاهما ذراعا الملكية المستبدة، يصور «إيكو» في أحد مشاهد القصة الدير في أعلى تلة مرتفعة، ثم يفتح الباب لتلقى منه فضلات طعام الدير للفلاحين الذين يتلقونها بلهفة وشغف.

الصورة الثانية يصور فيها «هوجو» مقاومة مقاطعة «بريتاني» إحدى مقاطعات فرنسا، والتي خاضت حرب «فنديه» ضد الثورة الفرنسية ومركزها «باريس»، رفع أهل هذه المقاطعة راية التمرد والعصيان على باريس مركز الثورة الفرنسية، وانحازوا إلى الملكية، وخاضوا حروبًا عنيفة ضد الجمهورية الوليدة.

كان سكان المقاطعة من الفلاحين وأهل الغابات، ويصفهم «هوجو»: «كانوا جميعًا يشتركون في صفة واحدة، هي تقديس الأرض والمالك، ولا يتجاوز تفكيرهم مطالب الحياة الدنيا.»

صورتان متقابلتان: أشد الناس بؤسًا، وأكثرهم معاناة من نظام فاسد، هم أشد الناس مقاومة للتغيير!!!

صورتان عجيبتان تتكرران عبر الأزمان، فبعد نجاح ثوار رومانيا في إسقاط «شاوشيسكو» ونظامه المجرم عاد «إيون إليسكو» وهو أحد رجالات «شاوشيسكو» في الوصول للحكم- عبر صناديق الاقتراع!!- وقام الشباب بالاعتصام في الميادين لاسترداد ثورتهم، ولكن الحسم كان لصالح «إيون إليسكو» عن طريق عمال المناجم- أشد الفئات بؤسًا في المجتمع- حيث زودوهم بالسلاح، واعتدوا على الشباب المسالمين، وفرقوهم.

هذا المشهد، هو أحد المعوقات الطبيعية لأي أمة تنتقل من السكون إلى الحركة، ومن الجمود إلى التغيير، ومن الواقع إلى تحقيق الحلم.

ونتعلم أن الذي يدفع للتغيير ليس الجوع والفقر والظلم، ولكن الشعور بالظلم هو الذي يدفع للتغيير.

والشعور هو صفة النفوس الحية والضمائر اليقظة والعقول النيرة، أما الذي تحركه مطالب الجسد فسترده اللقمة واللقمتان، بل مجرد الوعد باللقمة.

أما التغيير فيبدأ بالنفوس والضمائر والعقول، ولن تتغير النفوس بالخطب والمواعظ، ولكن يغيرها طليعة مؤمنة تحول الأفكار إلى عقائد، والخطب إلى سلوك، والأحلام إلى فعل وحركة وجهاد.

طليعة تعمل للناس في سبيل الله أكثر مما تعمل لأنفسها حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

■■■

«حارة اللصوص»

حفظ لنا التراث الشعبي قصة رمزية، تبين ألاعيب اللصوص والمجرمين في سرقة الشعوب بحكم قانون حارة اللصوص، وحكاية «حارة اللصوص»: أن أحد المواطنين مرَّ بحارة اللصوص، فسرقوا ما معه وجردوه من ثيابه، فظل يصرخ: يا مجرمين أين أموالي، أين ملابسي؟!!

وحين علا صراخه، وبدأ الناس يتعاطفون معه، قالوا له: لماذا تصرخ نحن في دولة القانون، وأنت متهم بإزعاج السلطات، والشغب في الشارع العام، وتعطيل مصالح الناس...

إذًا: لنعقد محكمة ونهيئ لك فريقًا للدفاع.

وقف المجني عليه كمتهم في قفص الاتهام عاريًا من ملابسه، وبدأ الادِّعاء بإلقاء التهم على المجني عليه بصفته أخل بقوانين الأمن العام، وأزعج السلطات..، ثم طلب الادِّعاء تطبيق أقصى العقوبة حفاظًا على هيبة الدولة وعبرة لأمثاله من المشاغبين، طلب الادِّعاء تطبيق حكم الإعدام!!

بُهت الجمهور في القاعة، وقف المجني عليه في القفص مذهولًا، وأخذ يصيح: أنا بريء، أنا بريء.

قالوا له: لا تنزعج، أنت في دولة القانون سنعطي فرصة لهيئة الدفاع؛ للدفاع عن جرائمك!

وقف الدفاع يستعطف المحكمة التي طالبت بالإعدام؛ بتخفيف العقوبة نظرًا لجهل موكله بقانون شارع اللصوص، وأنه ما كان ينبغي له أن يصرخ ويزعج السلطات، والتمس من عدالة المحكمة الحكم بالبراءة لموكله.

بعد التشاور قررت المحكمة تخفيف الحكم إلى السجن المؤبد!!

صفق الناس في القاعة، ووقف المجني عليه فرحًا بنجاته من القتل، يقفز عاريًا داخل القفص، وهو يهتف مع جمهور القاعة: (يحيا العدل، يحيا العدل)!

كيف يتحول المجني عليه إلى متهم؟

كيف يتم تهيئة الرأي العام لقبول تحويل المجني عليه إلى متهم؟!

كيف يتم الوصول لمراد اللصوص، والجماهير والمجني عليهم يهتفون بكل سعادة، يحيا العدل!؟

كيف يمكن فهم قيام شركاء اللصوص بالداخل والخارج، وهم يقومون بدور الإدانة لقسوة الأحكام؟!

هذه هي لعبة اللصوص والمجرمين مع شعب «حارة اللصوص».

ولفهم ما يدور في «حارة اللصوص»عد إلى القصة مرة أخرى، ففيها عِبرٌ وحِكمٌ حفظها لك أجدادك ممن ساروا في دروب القهر داخل حارات اللصوص.

■■■

حكاية شعب اتسرق؟!

الأديب المبدع «توفيق الحكيم» التقط قصة شعبية متوارثة عن اتفاق الفرَّان والقاضي للاستيلاء على «إوزة» لأحد المواطنين.

المواطن أتى بالإوزة مذبوحة نظيفة جاهزة داخل الصينية؛ ليسويها الفرَّان، وحين رآها الفران حلَتْ في عينيه، وأراد أن يسرقها ويأكلها، ولكن إذا أكل إوزة المواطن وحده، فسيكون معرضًا لعقاب القانون.

إذًا، ما المخرج؟ ليشترك معه القاضي في الجريمة!!

ذهب الفران إلى القاضي، وأعطاه نصف الإوزة، وأخذ هو النصف الثاني، ثم أدار»توفيق الحكيم»حوارًا مسرحيًّا ساخرًا في مسرحية قصيرة باسم «مجلس العدل».

صوَّر من خلال حواره، وقوف المتضررين من الشعب أمام منصة القاضي، وهم يشتكون الفران الذي سلب أحدهم إوزته، ثم تعدى على الحاضرين أمام الفرن بالضرب.

وصوَّر براعة القاضي في إقناع الخصوم بأن الإوزة لم تسرق، ولكنها بقدرة قادر طارت وهي «محمرة في الفرن»، وذلك ليبرئ الفران شريكه في الجريمة، وامتدت براعته إلى تحويل شكوى كل مواطن على حدة إلى جريمة تستحق العقاب، ودفع غرامة قدرها جنيهًا واحدًا.

وفي نهاية الحوار بعد أن تحول الجاني إلى برئ، وتحول كل المتضررين

إلى جناة، التفت القاضي إلى فلاح في آخر الجلسة، وبجواره حماره الأزعر؛ لأن ذيله انخلع في يد الفرَّان أثناء محاولته الهرب»، وسأله القاضي: ما شأنك؟ فأجاب الفلاح: لا أريد شيئًا!!.

فسأله القاضي: ألم يمسك هذا الفران بذيل حمارك؟

قال: لا. فقال القاضي: أليس حمارك أزعرًا؟، قال الفلاح: خِلْقة رَبِّه!!

قال القاضي: أنت رجل كذاب، أيوجد يا رجل حمار يولد أزعرَ؟!

الفلاح: ربنا قادر على كل شيء، كما سمعت منك أنه جعل الإوزة المحمرة تطير من الفرن!!

قال القاضي: أقنعتني، لعنة الله عليك!!... إذًا ما جاء بك إلى هنا؟

الفلاح: أتفرج على الجلسة!!

القاضي: هل قالوا لك إن العدالة فرجة؟! وفرجة بالمجان؟! حكمت عليك المحكمة بجنيه غرامة.

الفلاح: بشكوى من غير شكوى، .. العدل ملاحق الجميع!! سلام عليكم.

وبعد أن انصرف الناس وخلا القاضي بالفران.

القاضي: ما رأيك؟ خلصتك كالشعرة من العجين !!

الفران: طيب، وحصيلة الغرامات؟

القاضي: مفهوم، لك فيها نصيب!!

وهذه حكاية شعب وقع فريسة اتفاق الحرامي مع القاضي،

وتوتة توتة.. خلصت الحدوتة.

العار يطارد قضاة دنشواي

حكمت المحكمة بالإعدام شنقًا على أربعة من أهالي دنشواي، وبالسجن والجلد على ما يقرب من عشرين، وحكم الشعب على القضاة بالذل والعار، وتمت مطاردتهم بسُبَّة في جبينهم لا يمحوها الزمن.

قصة وعبرة تحمل في طياتها وعي الشعب في مواجهة الظلم، فلنتتبع القصة.

رئيس المحكمة: «بطرس باشا غالي» وعضو المحكمة التي كتب حيثيات الحكم «أحمد فتحي زغلول» وممثل الادِّعاء «إبراهيم بك هلباوي».

سيق للمحكمة ما يقرب من خمسين من أهالي القرية، مقرنين في الأصفاد، تتراوح أعمارهم من الخامسة عشر وحتى الخامسة والسبعين، ووقف ممثل الادِّعاء يطلب أقصى العقوبة على الفلاحين البسطاء الذين تجرؤوا ودافعوا عن ممتلكاتهم من عبث جنود الاحتلال الذين أرادوا أن يتسلوا بالصيد، فتعدَّوْا على أبراج الحمام في القرية، وأصابت رصاصاتهم بعض الأهالي وأحرقت النار في «الجرن»- مكان درس الحبوب وتخزينها- وجَّه «إبراهيم الهلباوي» لرجل تجاوز الخامسة والسبعين عامًا «حسن محفوظ»- أحد الذين تم إعدامهم- أصابع الاتهام قائلًا: «إن حسن محفوظ أقام الفتنة النائمة فكدر جو أمة بأسرها؛ لأنه مضى علينا خمسة وعشرين عامًا، ونحن مع المحتلين في إخلاص واستقامة وأمانة، أساء إلينا وإلى كل مصري. فاعتبروا صوتي صوت كل مصري حكيم وعاقل يعرف مستقبل أمته وبلاده!!»

وكالمعتاد صاحب هذه المحكمة حملة دعاية وظفت فيها الحكومة والاحتلال

الجرائد؛ لتضليل الرأي العام، فذكرت جريدة المقطم المصرية أن الحريق الذي شب في الجرن ليس بسبب شرار بنادق جنود الاحتلال، ولكن لما استفحل الأمر بين الأهالي وجنود الاحتلال، أضرم الأهالي النار في الجرن حتى يتهموا جنود الاحتلال!!!، وأكثر من ذلك ذكرت أن القتيل الذي قتله جنود الاحتلال، وجد مقتولًا بضربة فأس من أحد الأهالي (يعني الأهالي يحرقون محصولهم، ويقتلون بعضهم!!)

هذا بخلاف ما ذكره الهلباوي في مرافعته من وصول بعض أعيان المنوفية-الإقطاعيين ذوي المصالح مع الحكومة- إلى ساحة المحكمة خجلين من هذه الحادثة، ويثبتون أنهم أبرياء من التهمة.

هكذا كان قضاة المحكمة، والمدعي العام، وصحافة الحكومة، والأعيان المرتبطين بها، ولكن الشعب قال كلمته، وأصدر حكمه، وحدد مصير المجرمين الفعليين في حق الوطن.

«بطرس غالي» اغتيل عام 1910 وكان وزيرًا للحقانية.

«أحمد فتحي زغلول» تم ترقيته بعد عام؛ ليصبح وكيل وزارة الحقانية، وتم عمل حفل تكريم له من بعض أتباعه المنتفعين في فندق «شبرد»، وطلب مريدوه من الشاعر أحمد شوقي أن يشاركهم بقصيدة، فأرسل لهم مظروفًا مغلقًا، وفتحت لجنة الاحتفال المظروف، فوجدت فيه:

إذا جمعتم أمركم وهممتموا	**تقديم شيء للوكيل ثمين**
خذوا حبال مشنوق بغير جريرة	**وسروال مجلود وقيد سجين**
ولا تعرضوا شعري عليه فحسبه	**من الشعر حكمُ خطه بيمين**
ولا تقرؤوه في شبرد بل فاقرؤوا	**على ملأٍ في دنشواي حزين**

ومات عام 1914م، ولم يجسر أحد على الإشارة إلى ذكراه، بل كان البعض يعير به أخاه زعيم الأمة «سعد زغلول»، أما «إبراهيم الهلباوي» فقد لفظه المجتمع، وتجنبه الناس، وصار كالجمل الأجرب وسط الأصحاء.

ذكرت مجلة المجلات العربية عدد فبراير عام 1908 أن الهلباوي استقل باخرة إلى أوروبا، وكان أحد أمراء مصر على الباخرة، فسألته حاشيته عمن يريد أن يكون معه على مائدة طعامه، فأجاب: كل مصري على الباخرة ماعدا المدعو «الهلباوي».

وأوردت المجلة أن سعادة «حسين رشدي باشا»لمَّا عُين مديرًا للأوقاف أراد لضرورة العمل أن يذهب لبيت الهلباوي، فلما علم سائق عربته صاح قائلًا: «هي حصلت تروح لبيت الهلباوي!! أنا ماروحشي يا سيدي لو قطعت راسي»!!!

ولكن الباشا كلفه بالذهاب رغمًا عنه، فلما قابل الباشا «الهلباوي»، مد الهلباوي يده للمصافحة، فقال له الباشا: جئتك في عمل مصلحي، وما جئت لأسلم عليك، ولا أقبل أن أكون أقل إحساسًا من سائق العربة الذي امتنع عن الحضور إلى منزلك»!!

وعاش الهلباوي إلى ما بعد الثمانين، وتوفي عام 1940، حاول خلالها أن يمحو هذه السبة من جبينه، وحاول جاهدًا في مذكراته التي كتبها أن يجد لنفسه عذرًا، ولكن خطيئته لا يمحوها الزمن، وقد خلدها شاعر النيل «حافظ إبراهيم» بقوله:

أَيُّهـا المُـدَّعـي العُمومِيُّ مَهلا ... بَعضَ هَـذا فَقَد بَلَغتَ المُـرادا

قَد ضَمِنّا لَـكَ القَضاءَ بِمِصرٍ ... وَضَـمِـنّـا لِنَجلِكَ الإِسـعـادا

فَـإِذا ما جَلَستَ لِلحُكمِ فَاذكُر عَهدَ مِصرٍ فَقَد شَفَيتَ الفُؤادا

لا جَرى النيلُ في نَواحيكِ يا مِصـ ـرُ وَلا جـادَكِ الحَيا حَيثُ جادا

أَنتِ أَنبَتِّ ذَلِكَ النَبتَ يا مِصـ ـرُ فَأَضحى عَلَيكِ شَوكًا قَتادا

أَنـتِ أَنـبَـتِّ ناعِقًا قـامَ بِالأَمـ ـسِ فَأَدمى القُلوبَ وَالأَكبادا

إِيـهِ يا مِـدرَةَ القَضاءِ وَيـا مَن سـادَ في غَفلَةِ الـزَمـانِ وَشـادا

أَنـتَ جَـلّادُنـا فَـلا تَـنـسَ أَنّـا قَـد لَبِسنا عَـلى يَـدَيـكَ الحِـدادا

نعم أحكام القضاء ألبست مصر الحداد، ولكن الشعب قال كلمته كما رأيتم.

قال كلمته برغم وجود حكومة عميلة، واحتلال أجنبي، وتضليل إعلامي، ولكن هذا الشعب- برغم غلبة الأمية عليه- كان يحمل فطرة نقية، وضمائر يقظة، ونفوسًا حية، ووطنية صادقة، وكان المثقفون والشعراء يتقدمون الركب، ويلهبون ظهور الطغاة أيًّا كان منصبهم بسياط إنتاجهم.

كان هؤلاء القضاة نبتًا أعوجا، نبت في شعب أبت عليه كرامته أن يترك لهم مجالًا للعوج فقوموه، ونبذوه.

■■■

صراع بين المصلحة والواجب

صراع مصيري في حياة الإنسان يستحق أن يتأمله وينفق فيه وقته وجهده، ولذا أدعوك لمتابعة هذا الصراع.

صراع صوَّره ببراعة الكاتب الفرنسي «فيكتور هوجو» في قصته المعروفة «البؤساء» على شكل حوار بين «جان فالجان»- بطل القصة- ونفسه، فتأمله معي ففيه فائدة كبيرة.

«جان فالجان» كان سجينًا فرَّ من السجن، وصار مطلوبًا للعدالة، تخفَّى وصار بعد حين من وجوه المجتمع بعد أن حاز أموالًا، وصار عمدة البلدة، استثمر أمواله ومنصبه في خدمة المجتمع، وأنشأ مصانع يعمل بها مئات المحتاجين.....

نما لعلمه أنه تم القبض على شخص ادَّعوْا عليه أنه هو السجين الهارب «جان فالجان» وأودع البريء في السجن ظلمًا، وجاري محاكمته.

هنا لحظة الصراع...

قال «جان فالجان»: سأسلم نفسي؛ لأنقذ هذا الإنسان البريء.

ثم عاد وقال: وإن سلمت نفسي، فمن لهؤلاء الفقراء والعمال والناس الذين أقدم لهم خدماتي؟

وهل أضحي بمصلحة هذا العدد الكبير من الناس من أجل إنسان واحد بسيط برئ؟!

لن أسلم نفسي، فهذا في مصلحة الجميع لا لمصلحتي الشخصية، نعم، من أجل المصلحة العامة لن أسلم نفسي.

واستمر الصراع بين ما زينه له عقله من أن بقاءه طليقًا هو للمصلحة العامة، وبين روحه التي تأبى هذه الحجة؛ لأنها سترمي بريئًا داخل السجن.

إنه صراع بين مصلحة يجد لها العقل ما يبررها، وبين واجب تتعلق به الأرواح والنفوس النبيلة.

صراع بين المصلحة والواجب، بين العقل والروح، بين الغريزة والقيم، بين الأرض والسماء.

إن الحجج والأسانيد المتبادلة في هذا الحوار كلٌّ منها ينتمي إلى عالم مختلف، والمسافة بين العالمين كالمسافة بين الأرض والسماء.

في هذا الصراع إما أن تنتصر بحججك وأسانيدك للأرض والعقل والمصلحة، أو للسماء والروح والقيم.

تعلقت أنفاس القراء بالقرار الذي سيتخذه «جان فالجان»، واتخذ القرار الصعب...، سلم نفسه للسلطات، واعترف على نفسه لينقذ السجين البريء.

انتصرت الروح على العقل، والسماء على الأرض، والقيم على الغريزة، والواجب على المصلحة.

تنفس القراء الصعداء، وارتاحت نفوسهم لقرار «جان فالجان»، واعتبروا القصة من أروع القصص الإنسانية التي لامست أشواق الروح والقلب، وتداولوها جيلًا بعد جيل.

إنها قصة انتصار الواجب، انتصار الروح والقيم، .... قصة انتصار النبل الإنساني.

نصفق لها بحرارة، ثم ننتقل إلى معترك الحياة فنستسلم لخطاب الغريزة، المدعم بأسانيد العقل الغريزي، المغلف بخطاب المصلحة العامة: الأمن- الاستقرار- الاقتصاد.....

والنتيجة: لا مانع من التضحية ببعض الأبرياء داخل السجون والمعتقلات، وحتى على أعواد المشانق!! وهذه فترة مؤقتة حتى تستقر الأوضاع!!!

أنت الذي صفقت لموقف «جان فالجان» على الورق.

تنطلق في الحياة تصفق لخطاب الغريزة، تضحي بالسماء والروح والقيم.. تضحي بأعز ما تملك، تضحي: بقيمتك، بجوهرك، ..... بإنسانيتك!!

■■■

أنقذوا سمعة الشعب

الشعوب لها سمعتها تمامًا كالأفراد، فمثلا نقول عن المنضبط في مواعيده (مواعيده إنجليزي)، والبضاعة المقلدة (تايواني)...، ونضرب مثلًا للسذاجة (أنت هندي)، وبرغم اعتراضي على المثل الأخير لما يحمله من إساءة، إلا أنني أسوقه هنا لنعقد مقارنة بيننا وبين من نتهمهم بالسذاجة.

نحن والهند عانينا من الاحتلال الإنجليزي، والهند نالت استقلالها قبلنا بسنوات قليلة.

الهند صادفتها صعوبات جسيمة، فالمجتمع الهندي متعدد اللغات والأديان والأعراق، وبسبب تلك التركيبة المعقدة؛ عانت الهند من الانقسام المجتمعي الذي تحول إلى انفصال جزء من الوطن، ثم سلسلة من الحروب، وبرغم هذا أقامت الهند دولتها الحديثة على رؤية واضحة المعالم عمادها (الديمقراطية، والنهضة العلمية)، وقد أصر رئيس وزراء الهند (نهرو) على أن يشتمل دستور البلاد على هذه العبارة (من واجب كل مواطن هندي أن ينمي تفكيره العلمي، والمبادئ الإنسانية وروح التقصي والإصلاح).

سارت الهند على الطريق الصعب بخطًى ثابتة ورؤية واضحة، فصارت أكبر تجمع بشري في دولة ديمقراطية في العالم.

وصارت واحدة من كبريات دول العالم في مجال التكنولوجيا والبرمجيات، وبلغ عائد قطاع التكنولوجيا 100 مليار دولار عام 2012.

وأصبحت اليوم تجاري أكبر دول العالم في المجال الاقتصادي والعسكري والعلمي.

هذه يا عزيزي هي الهند التي كنا نسخر من سذاجتها!!

فمن نحن؟

نحن يا عزيزي حالنا عجب!!

نحن خلال ستين سنة ندور كمعصوب العينين، يدور في حلقة مفرغة، يظن كلما تحرك أنه يتحرك للأمام، ومع كل دورة يكتشف أنه انتقل من المكان الذي ارتحل إليه إلى المكان الذي ارتحل منه!!

نحن أدرنا دولتنا بالعضلات والشعارات، وهم أداروا دولتهم بالفكر والعلم والحرية.

هناك ساسة أخلصوا لوطنهم سواء في الحكم أو المعارضة، ومثقفون حملوا رسالة التنوير لشعبهم، وهنا ساسة ومثقفون باعوا شعوبهم على مذابح مطامعهم.

يا ترى ماذا يقول العالم عنا؟ ونحن خلال ستين سنة بالأمر العسكري «نجرى في المحلّ» ثم جاءتنا الفرصة للجري للأمام، فعدنا مرة أخرى بالأمر العسكري «للخلف دُرْ»

نحن في حاجة إلى نزع العصابة عن أعيننا، والتحلي بالوعي حتى نرى أنفسنا كما نحن، ونرى العالم كما هو.

نحن في حاجة إلى حملة عنوانها (أنقذوا سمعة الشعب).

■■■

فاشلون بضاعتهم كذب وهزل

كان البعض يستغرب جدًّا من الشعب الأمريكي، كيف يترك أصل موضوع (كلينتون- مونيكا) وهو الانحراف الجنسي لرئيسه، ويركز في موضوع فرعي وهو كذب الرئيس على شعبه!!

وكان البعض يصور الشعب الأمريكي على أنه شعب أهبل، وليس عنده نخوة، ولكن هذا الموقف يدل على وعي الشعب الأمريكي.

فانحراف الرئيس الجنسي أمر يشينه هو فقط، أما الكذب فهو يشين الرئيس، ويهين الشعب في نفس الوقت!! كيف؟

لأن الكاذب يتصور فيمن يكذب عليه، أنه مغفل وسيصدقه، فكون السلطة التنفيذية رئيسًا أو حكومة تعامل شعبها بالكذب، معناه أنها تعتبر شعبها قطيعًا من المغفلين.

هذا فضلًا عن تناقض الكذب مع مبدأين أساسيَّين من مبادئ الحكم الرشيد وهما الشفافية والنزاهة.

هذه هي الشعوب الواعية، أما الشعوب الأخرى، فحكامها يعاملونها على قاعدة الاستغفال، فتستطيع أن تحصي في خطاب واحد لمدة دقائق معدودة ثلاث كذبات يشهد عليها شهود عدول، ولا يكون ذلك سببًا للاعتذار؛ لأن (شعب الحكومة) لم يشعر بالمهانة، فلم الاعتذار إذًا؟!

وإذا عم في الشعب الكذب، فشا فيه الهزل، وإذا فشا الهزل في الأمة، صارت أمة هينة لينة في يد طغاتها؛ ولذلك يتحول الكذب والهزل إلى صناعة حكومية يرعاها الطغاة، ويستخدمونها أداة لتحويل طاقات الأمة نحو الهزل.

فالفنان الهازل والفنانة الهازلة لهم الدرجات العلى في المجتمع، ويعتبر هزلهم رفعًا لاسم الأوطان عاليًا!!

والنصر في مباراة كرة قدم هو نصر مبين، وفتح من رب العالمين، وهدية السماء للجوعى والمقهورين والمحرومين!!، بل تتحول مقياسًا للوطنية!!

فليست الوطنية: كم ضحيت؟ وكم بذلت؟ وعملت، وفكرت، وأعطيت؟

بل تصبح: كم صفقت؟ وشجعت، ورقصت، وزمرت؟!

هذا هو الشعب المثالي والبيئة الخصبة لنمو الطغيان.

طغاة يقودون شعوبهم بالشعارات الزائفة، وشعوب تطرب لتلك الشعارات، فإذا هزءوا بالعدو في شعار، فكأنهم هزموه في معركة.

إن حياة الهزل ظريفة لطيفة، تركن إليها النفوس الضعيفة- وما أكثرها!- فلا تضحية فيها ولا عمل ولا عطاء، ولكن الكتلة الحية الواعية من الشعب- وإن قلَّت- هي من سيقود مستقبل هذه الأمة: بالجد لا بالهزل، وبالعمل لا بالشعارات، وبالتضحية لا بالتصفيق.

إن معركتنا نحو الحرية والتقدم لن تمر إلا على جثة الكذب والهزل.

معركة.. إن لم يقتل فيها الهزل، قتل فيها الحلم والأمل.

■■■

شعب يستحق الديمقراطية

«نحن شعب لا يستحق الديمقراطية»!!.. «نحن لم نتعود على الديمقراطية!!.. «سنة أولى ديمقراطية»!!

كم مرة سمعت هذه العبارات تتردد على ألسنة ضيوف الإعلام؟

وكم مرة سمعت من حولك يرددون نفس العبارات بما يشبه العدوى؟

أنا على قناعة تامة أن ترديد مثل هذه العبارات في أجهزة الإعلام، وعلى ألسنة بعض الساسة والمشاهير لا تتردد عفو الخاطر، ولكنها ضمن خطة السيطرة على الشعوب وتطويعها، سواء علموا مردودها أو لم يعلموا.

فاحتقار الذات يولد شعورًا بالدونية يكون من نتيجته الخضوع والاستسلام.

فما هي النتيجة من وراء ترديد «نحن شعب لا يستحق الديمقراطية» سوى: أيتها الشعوب، ارتموا في أحضان الديكتاتورية، وانتظروا حتى يتعطف عليكم الديكتاتور لتتحولوا تدريجيًّا على يديه إلى شعوب تستحق الديمقراطية!!!

فهل نحن فعلًا: «شعب لا يستحق الديمقراطية»!؟

تحملني قليلًا عزيزي القارئ، وأنا أروي لك صفحة مطوية من تاريخ هذا الشعب العظيم في نضاله نحو الحرية والديمقراطية.

هذا الشعب الذي جاهد من أجل تأسيس أول مجلس نواب عام 1866 باسم مجلس شورى النواب، والذي تطور بصلاحيات واسعة بعد الجهاد من أجل تأسيس دستور 1923.

يومها كان نواب البرلمان يجاهدون تحت قبته للحفاظ على حقوق المواطنين، وقف النائب «أحمد عبد الغفار باشا» ممثل حزب الأحرار الدستوريين عام 1927، معترضًا على طلب القصر الملكي اعتماد مبلغ كبير من الموازنة؛ لشراء سيارات ملكية قائلًا:" إنني أرفض هذا الاعتماد، فنصف شعبنا وأهلينا جياع، وهم أولى بكل قرش ينفق على السيارات الملكية»، ووقف النائب «عبد الخالق باشا ثروت»معترضًا على طلب الملك فؤاد فتح اعتماد مالي لرحلة خاصة وشخصية للملك إلى أوروبا، ووافق المجلس بالإجماع، ورُفض الاعتماد.

هؤلاء النواب كان وراءهم سندٌ وظهيرٌ من شعب يكافح من أجل حريته وكرامته، وقف هذا الشعب خلف نوابه يوم أغلقت حكومة الملك باب البرلمان بالسلاسل فسار النواب وخلفهم الشعب، وحمل النائب «ويصا واصف» بلطة هوى بها على السلاسل ففضها، واقتحم النواب المجلس، وكسروا كبرياء الملك ومن خلفه الإنجليز.

وبلغ الوعي الديمقراطي لهذا الشعب، أنه يوم علق «إسماعيل صدقي» رئيس الوزراء العمل بالدستور، وفي ثاني يوم مباشرة قدم المئات من العُمَد استقالاتهم دون تنسيق مسبق، ولكنه الحس الوطني والوعي السياسي.

وهذا الشعب ذاته الذي وقف خلف نواب الوفد، هو نفسه الذي تظاهر ضد تصريح «مصطفى النحاس» زعيم الوفد، حين سُئل عن القضية الفلسطينية فقال: «أنا رئيس وزراء مصر، ولست رئيس وزراء فلسطين» فاعتبر الشعب هذا التصريح تنصلًا من الواجب الوطني والديني الذي يجب أن تقوم به مصر.

هكذا كانت شعوبنا الحيَّة قبل أن نُبتلى بالديكتاتورية.

ويأتي اليوم هؤلاء الجهلاء المتعالمين أشباه المثقفين؛ ليقولوا: «نحن شعب لا نستحق الديمقراطية»!!

دعوكم منهم، وثقوا بأنفسكم وبشعبكم، وأزيلوا الغشاوة التي وضعوها على أعين الشعب، بكل صبر ودأب وتحمل وحسبة إلى الله، وستجدون شعبًا عظيمًا نبيلًا، هو- على ما هو فيه- أمل الأمة العربية والإسلامية في النهوض من كبوتها، وتأكدوا تمامًا أن كلمتكم الطيبة التي ستبذرونها لنهضة هذا الشعب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وستلقف كلمتهم الخبيثة وتجتثها من فوق الأرض.

وستؤتي كلمتكم أُكلها.. حرية وكرامة لـ «شعب يستحق الحرية والكرامة».

■■■

الخطاب «لا» يقرأ من عنوانه

نبتت في بيئتنا الثقافية حشائش ضارة، ينبغي على المثقفين مواجهتها، ومن تلك الحشائش الضارة المثل القائل «الجواب يتقرا من عنوانه»، نموذجللكسل العقلي، والسطحية في الحكم، وعدم الرغبة في الدقة والبحث والتحري.

صفات قادت المجتمع للانخداع بالعناوين البراقة، وقادتنا للحكم السريع على الأشياء دون فكر أو رَويّة أو تثبت.

جعلتنا بيئة خصبة لانتشار الشائعات، وتصديق ما لا يصدق عقل، جعلتنا نهبًا لثلة من المفسدين المتلاعبين بالعقول، ومن عجب أن المجتمع فيعمومه يعلم كذب هؤلاء المفسدين، وبرغم هذا يتلقى الناس عنهم، ويروجون ما يسمعونه من كذب منقول عن كاذب.

عجيب أن يتم هذا في أمة بنت حضارتها على قواعد عقلية سبقت بها أوروبا بقرون، فنحن أمة التثبت والتحري، والتدقيق في الخبر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ **(الحجرات: 6)**.

أمة تعلمت أن الحكم السطحي المبني على الظن- جريمة في حق الفرد والمجتمع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ **(الحجرات: 12)**

للأسف الطريقة المحسوبة على المثقفين في عمومهم مشغولون بالظهور الإعلامي، وكتابة القصة والروايات وتحويلها لأفلام ومسلسلات، وحتى من سبقهم من طبقة المثقفين الذين أثروا في بيئتنا الثقافية في القرن الماضي لم يلتفت منهم إلا القليل إلى الاهتمام بالتفكير المنطقي السليم، ونشر أسسه وقواعده في المجتمع، ولكن كان من ضمن هذا القليل الدكتور «علي مصطفى مشرفة» عالم الذرة المعروف، وننقل بتصرف بعض ما ورد في كتابه: «التفكير العلمي» يقول: «العقول الراجحة تزن الأمور بميزان الحقيقة، فلا تجزم إلا بعد التثبت، ولا تقطع بأمر إلا بعد الاستقصاء، فإذا لم تكن الأدلة كافية، فالحكم معلق، والأمر مازال قيد البحث، أما العقول الطفيفة، فتتسرع في الحكم أو تعتمد على أوهى الأدلة، وتبني النتائج على غير مقدمات؛ ولذلك يبدون استعدادًا مدهشًا لتصديق ما لا يجوز تصديقه، فهم آلوا على أنفسهم ألا يبذلوا جهدًا في البحث والتحري وهم راضون عن أنفسهم، بل أصبحت جهالتهم وأوهامهم جزءًا من شخصيتهم، يدافعون عنها كأنهم يدافعون عن حياتهم»، وأتركك عزيزي القارئ؛ لتقارن بين مثلنا العربي القائل: «الجواب يتقرا من عنوانه» وبين المثل الإنجليزي القائل:

“ you can’t judge a book by its cover ”

الأول: سطحية، وكسل، وعدم تحرٍّ للدقة، يؤدي إلى سهولة السيطرة على العقول وخداعها.

والثاني: بحث وتقصٍّ، ودقة وتحرٍّ، يعصم من الخديعة.

■■■

الإسلام السياسي والتجارة بالدين

مصطلح الإسلام السياسي هو مصطلح حديث نال شهرته واتساعه مع دخول الأحزاب ذات التوجه الإسلامي في منافسات انتخابية مع الأحزاب الليبرالية والقومية والماركسية.

وتم تداول هذا المصطلح على سبيل المكايدة السياسية، حيث تم ترويجهعلى أنه تجارة بالدين، أو إدخال الدين فيما ليس له.

ونحن نريد أن نناقش هذا المصطلح بلغة من المفترض أن تناسب من يردد هذا المصطلح عن وعي.

سنناقش المصطلح على قاعدة (الأيديولوجية) على اعتبار أنه ينبغي أن يكون لأي مثقف واعٍ (أيديولوجية) ما؛لأن من ليس له أيديولوجيا- إنسان يعيش دون أن يفكر.

فالأيديولوجية مجموعة من الأفكار المتماسكة المتكاملة تُكَوّن عند الإنسان الواعي رؤية وتصورًا عن الكون وعن الإنسان، وبناءً على هذا التصور يمتلك القدرة النقدية لما يحيط به من هذا العالم، ويمتلك التصور لنموذج مثالي وفق أيديولوجيته.

وإذا أردت أن تختصر مفهوم الأيديولوجية- بمقدورك أن تسميها (عقيدة).

ولكن ليس كل دين أيديولوجيًا، وليس كل أيديولوجية دين.

فقد يوجد دين ما، يتحدث عن الروحانيات والمثاليات ومصير الإنسان بعد الممات، ولا يملك تصورًا متكاملًا عن تنظيم شئون الناس في الحياة (سياسية- اجتماعية- اقتصادية....)

وقد توجد أيديولوجية على غير قاعدة الدين، ولكنها تمتلك تصورًا كاملًا عن الكون ومصير الإنسان وتنظيم حياته على الأرض، وتروج لنموذج مثالي سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، كالشيوعية مثلًا.

إذًا، الإنسان الواعي المفكر ينبغي أن تكون له عقيدة؛ تخلق داخله رؤية عن حياة الإنسان ومصيره، ونموذج لإدارة مجتمعه.

فإذا كان الدين الإسلامي يمثل أيديولوجية متكاملة تمتلك تصورًا عن الكون، وعن الإنسان حياته ومصيره، وتضع تصورًا عامًّا لنموذج مثالي تضع له قواعده العامة في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية..........

فما هو العيب إذًا أن يكون للمسلم (الملتزم بدينه) رؤية سياسية منطلقة من أيديولوجيته (عقيدته) الإسلامية؟

ولماذا يكون هذا الحق مكفولًا لكل الأيديولوجيات ما عدا الإسلام؟

وإذا تفلسف متفلسف وقال: أي أيديولوجية إسلامية تريد، هل نموذج داعش أم طالبان؟

فبالمثل، وأي ليبرالية تريد، مبارك أم بن علي؟ وأي ماركسية تريد، لينين أم ماوتس تونج؟ وأي قومية تريد، صدام أم الأسد؟... يعني (لا تعايرني ولا أعايرك الهم طايلني وطايلك)

فلنرتفع عن هذه الترهات إذا أردنا فعلًا أن نرتفع بمستوى تفكيرنا ومستوى طموحنا لوطن حر يتسع للجميع.

ثم كلمة أخيرة لعزيزي الإقصائي تحت أي مسمى أيديولوجي: هذه هي عقيدة المسلم الملتزم بدينه وتلك أيديولوجيته، فما هي أيديولوجيتك أنت؟

هل تستطيع الإجابة؟ وعرض بضاعتك في وجود بضاعة منافسة؟

أم ستركب الدبابة لسحق البضاعة المنافسة؟

وهمسة في أذن المسلم الذي يردد تلك الشعارات بلا وعي: إذا جاز لك أن تقول الإسلام السياسي (وتتهم أصحاب هذا التصور بالتجارة بالدين)، فقل أيضًا: الإسلام الاجتماعي، والإسلام التعبدي، والإسلام الأخلاقي...

ثم احذف من الإسلام ما شئت، ودع ما شئت على هواك.

ولا تنس أن تحتفظ بهوية "مسلم".

■■■

نتحداهم أن يُعَرِّفوا الإرهاب

بمناسبة سرادق العزاء العالمي المنصوب في فرنسا حول «الإرهاب»- هل من الممكن طرح سؤال:

ما هو تعريف الإرهاب؟

أمريكا التاجر الأكبر ببضاعة "مكافحة الإرهاب" هل تستطيع هي أو من يدور في فلكها غربًا وشرقًا تعريف الإرهاب؟

لم ولن تجد تعريفًا واحدًا للإرهاب إلا وسيكون وصمًا ووشمًا بالإرهاب على تلك الوجوه المتاجرة ببضاعة العصر الدموية "مكافحة الإرهاب"

وإليك هذا التصريح الصريح من "إدوارد بيك" نائب رئيس لجنة مكافحة الإرهاب في عهد الرئيس "رونالد ريجان": " طلبت الإدارة الأمريكية منا أن نُعَرِّف الإرهاب، وقمنا بتقديم ستة خيارات للتعريف، وفي كل مرة يتم رفضها؛ لأن القراءة المتأنية لها تبين أن بلادنا كانت تمارس بعضها".

كلام "إدوارد بيك" تؤيده الوقائع، فهل هناك تعريف واحد للإرهاب ممكن ألا ينطبق على دولة دمرت دولة أخرى، وقتلت مئات الآلاف من أجل البترول.

عندما سُئِل السفير الأمريكي "جيمس أيكنز" عن سبب الغزو الأمريكي للعراق، قال: "بالطبع إنه البترول، فلو أن العراق كان ينتج الفجل فهل كنا ذهبنا لغزوهم؟! بالطبع لا، لقد غزونا العراق من أجل النفط" (عن كتاب "نذر العولمة" للدكتور "عبد الحي زلوم").

هل هناك تعريف واحد للإرهاب ممكن أن يفلت منه من يضربون بالصواريخ وبطائرات بدون طيار وبالبراميل المتفجرة أحياءً سكنية، ثم يأتي

خبر نسمعه باستمرار كل يوم: تم قتل كذا (إرهابي)، ثم ينجلي غبار الدور المهدمة عن جثث أطفال ونساء وعجائز.

من يملك أن يحدد أن القتلى إرهابيون؟!

من الذي عَلَّم هذه الصواريخ أن تنتقي الإرهابيين من وسط الناس؟!

والجواب: أن من يملك تحديد من هو الإرهابي هو من يملك الصاروخ والمال الذي يوجِّه الإعلام، بل ويملك أن يصم الإرهاب بأنه (إرهاب إسلامي)، والتطرف بأنه (تطرف إسلامي).

لماذا يا قوم لم تعتبروا الإرهاب يهوديًّا برغم الجرائم ضد الإنسانية التي يمارسها كيان غاصب يعلن هو عن نفسه أنه كيان "يهودي"؟!

لماذا لم تعتبروا الإرهاب مسيحيًّا، ودول الغرب المسيحي تمارس أبشع الجرائم، بل لم تعتبروه إرهابًا مسيحيًّا حين قام "أندريس بريفيك" عام 2011، في النرويج بجريمة راح ضحيتها أكثر من سبعين شخصًا برغم أنه عرف نفسه بأنه "صليبي مسيحي" يفعل ما أمر به الرب، وكان "أندريس" قائدًا لجماعة أصولية مسيحية.

ولماذا نحن المسلمين فقط المطلوب منا أن ننبطح أرضًا أمام هذه الجرائم الفردية، ويركب بعضنا ظهور بعض لنجلس على كرسي الاعتراف بذنب لم نرتكبه، بل نحن أكثر ضحاياه؟!

وأعجب العجب أن نجد الباعة الجائلين في بلادنا ببضاعة مكافحة الإرهاب يستغلون تلك الجرائم للطعن في شعوبهم وعقيدة أمتهم.

ونخص هنا أدعياء الثقافة والفكر والتنوير، ومن تبعهم من ببغاوات؛ بالتحدي أن يجرؤوا علي تعريف الإرهاب، فلم ولن يجدوا تعريفًا واحدًا منضبطًا للإرهاب تنجو منه أيديهم وأفواههم وأقلامهم من دماء شعوبهم.

الإنسان.. سلعة رأسمالية رخيصة

لماذا كل هذه الضجة حول «شارل إيبدو»؟

إذا كانت الحروب تعني دمارًا وأشلاءً ودماءً، فإنها تعني أيضًا تحريك عجلة الاقتصاد، وتوفير فرص عمل جديدة، وتشغيل لمصانع السلاح، وسوق جديدة لإعادة الإعمار.

الحرب تجارة رأسمالية رابحة: أرباحها بالدولار، وخسائرها بالأرواح!

بعد سنة واحدة من غزو أمريكا للعراق نشرت صحيفة الفاينانشيال تايمز: «زادت أرباح شركة هاليبرتون 80 ٪، وشركة بكتل 158 ٪، وشركة صناعة الأسلحة لوكهيد مارتن 300 ٪».

ولا مانع أبدًا في سبيل هذه الأرباح الطائلة أن تتحالف أجهزة الإعلام المملوكة للشركات الكبرى مع رموز الإدارة الأمريكية المرتبطة أيضًا بتلك الشركات لتسويق الحرب من خلال 925 كذبة لإدارة بوش بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر أحصاها تقرير لـ (أسوشيتد برس) وذلك لتهيئة الرأي العام لخوض تلك الحرب المربحة.

وإذا كانت التجارة بالإنسان في سوق الحروب الرأسمالية (المتحضرة!) مربحة، فكذلك التجارة بالمرأة في سوق النخاسة الجنسية الرأسمالية مربحة جدًّا، بحسب ما ورد في كتاب (الخروج من الرأسمالية) لمؤلفه الفرنسي (Herve Kempv)

«تم بناء بيت دعارة ضخم مساحته 3000 مترًا مربعًا بجوار الاستاد الرئيسي في برلين أثناء مباريات كأس العالم لكرة القدم عام 2006، وتم استيراد 4000 امرأة لهذه المناسبة، ولم تكن ألمانيا استثناءً، ففي عام 2004 سمحت اليونان بإنشاء ثلاثين بيت دعارة إضافيًّا، وتسهيل استقدام عشرين ألف امرأة؛ لتلبية زيادة الطلب أثناء الألعاب الأوليمبية"!!

كل شيء يا عزيزي في الرأسمالية الغربية يخضع لقوانين الربح والعرض والطلب.

العالم يشتكي من السمنة المفرطة وما تسببه من أمراض، وإعلانات الوجبات السريعة المسببة للسمنة تحيط بك في كل مكان لتسهيل تجارة: أرباحها بالدولار، وخسائرها صحة الإنسان.

وكان بودِّي أن يتسع الحديث عن تجارة تأجير الأرحام، والتجارة في الأعضاء البشرية، وتجارة بيع الأطفال بغرض التبني وأغراض أخري،

وكذلك رغبة مني في أن أصل معك سريعًا إلى بيت القصيد حول جريمة الاعتداء على مقر صحيفة «شارل إيبدو»، لماذا كل هذه الضجة المثارة في فرنسا، والتي جمعت العالم كله للمشاركة في- زفة- التنديد بالحادث الإجرامي على صحيفة «شارل إيبدو» ؟!

وقبل أن تجيب، إليك السؤال الثاني: لماذا لم تقم هذه الضجة في حوادث أكثر بشاعة مثل حادث إطلاق النار في مدرسة بولاية «كونيتيكت»الأمريكية، وراح ضحيته 27 شخصًا منهم 18 طفلًا، وقبله حادث مشابه في جامعة فرجينيا راح ضحيته 32 شخصًا؟!؛ لأن الجريمة الأولى يراد توظيفها سياسيًّا في الحرب المربحة المسماة «الحرب على الإرهاب»، حرب أرباحها لأمريكا

والغرب طائلة، ويكفي أنها حتى الآن خفضت سعر البترول لأقل من النصف، أما خسائرها فهي بسيطة جدًّا.. مجرد مئات الآلاف من أرواح بشر في دول تسمى «العالم الثالث»- يعني مجرد رقم (3) بدون اسم!

أما الجريمة الثانية فينبغي أن يتم معالجتها سريعًا بلا ضجة؛ لأن الضجة في هذه الحالة ستؤدي إلى تعديل قوانين تراخيص امتلاك السلاح، مما يؤدي إلى خسارة في سوق صناعة وتجارة السلاح الأمريكية.!

إذًا؛ لتكن الأرواح الأولى سلعة في سوق تجارة الحرب على الإرهاب، والأرواح الثانية سلعة في سوق مافيا صناعة وتجارة السلاح !

هذا هو الإنسان في سوق الرأسمالية الغربية (المتحضرة(، نضع هذه المعلومات بين أيدينا حتى نفهم ما يدور حولنا.

وحتى تعصمنا من احتقار الذات والانسياق وراء أي جاهل أو حاقد يريد أن يحول المجرمين إلى ضحايا، والضحايا إلى متهمين، ثم يدعي بكل صفاقة وجهل علاقة الإرهاب بالإسلام والمسلمين.

■■■

لا تسل: كيف ولماذا؟!

البحث عن سبب يفسر ظواهر الأشياء التي تدور حولنا، هو نشاط عقلي يلزمه استعداد وتدريب وتأهيل.

هذا النشاط العقلي كان بداية النقلة النوعية لمجتمعات تحولت من الجهالة والخرافة إلى العلم والريادة.

حدث هذا مع العرب حين نقلهم الإسلام عبر ما لا يُحصى من آيات القرآن التي تربط الأسباب بالمسببات؛ ليرسخ في المجتمع الجديد أول مبادئ التفكير العلمي، وهي ذات النقلة التي أحدثها علماء النهضة الأوروبية؛ لينقلوا أوروبا من عصر الظلمات المؤمن بالخرافة إلى العلم التجريبي القائم على الملاحظة والبحث عن أسباب الظواهر.

هذا النشاط العقلي، أو هذا النمط من التفكير العلمي لا يقتصر على الظواهر الكونية، بل تمتد إلى الظواهر الإنسانية التي تشكل الظواهر الاجتماعية، ويظل هذا النشاط العقلي على المستوى الإنساني هو المرحلة الفارقة بين الطفولة المبكرة التي تكتفي بالنظر إلى ظواهر الأشياء، وبين بداية النشاط العقلي؛ حيث يبدأ الطفل في طرح سؤال: لماذا؟...

إذا انتقلنا من هذه المقدمة إلى النظر لواقع مجتمعاتنا ونظرتها إلى الظواهر الاجتماعية المُزلزِلة التي ترُجُّ مجتمعاتنا رجًّا، فسنجد تفكيرًا طفوليًّا يقف عند ظواهر الأشياء، ويبكي على آثارها، دون أن يكلف نفسه عناء النشاط العقلي بطرح أسئلة عن أسباب تلك الظواهر أو المشكلات.

وبالتالي نحن أمام أمراض اجتماعية لم نبدأ بعد في تشخيصها، فكيف نطمع في علاجها؟!، بل إنني أجزم أن هناك خططًا محكمة لتظل شعوبنا في

مرحلة الطفولة المبكرة.

وهذه الخطة المحكمة لمحاصرة عقول الشعوب تعتمد على أساليب معروفة ومجربة، وتقوم في الأساس على قواعد ثلاث: التأكيد-التكرار- العدوى.

التأكيد بإطلاق عبارات رنانة تخلو من أي برهان أو حتى تعريف لمفرداتها، ثم يأتي دور التكرار الممنهج عبر وسائل الإعلام؛ لتترسخ تلك العبارات في النفوس لدرجة لا تقبل البحث عن برهان أو دليل، وبعد التأكيد والتكرار يأتي دور الآلية الشعبية الجماهيرية الجبارة وهي «العدوى»، لتنتقل تلك العبارات كالجَرَبْ من المرضى إلى الأصحاء، وقد كانت تلك العدوى تنتقل سابقًا فقط من خلال التجمعات الجماهيرية في الشوارع والمصانع والمقاهي....، ولكن أجهزة الاتصال الحديثة وخاصة «التلفاز» نقلت فلسفة التجمع الجماهيري إلى داخل منزلك ولو كنت وحدك.

هذه الجريمة في حق الشعوب لا تقوم بها فقط الذئاب العاوية في أجهزة الإعلام، ولكن بإمكانك ملاحظتها في تصفح مقالات الرأي لمن يدعون أنهم أصحاب رأي وفكر وتنوير وثقافة، وستجد نمط تفكيرهم في تناول ظواهر مجتمعنا تتماشى تمامًا مع الطفولة العقلية المفروضة على شعوبنا- هذا إن أحسنا بهم الظن ولم نفرض أنهم أداة لتنفيذ الخطة.

نعود ونؤكد أن الإنسان الذي يقف عند حدود الظواهر دون أن يمارس أي نشاط عقلي في البحث عن أسبابها يفقد أهم مقوماته كإنسان عاقل مفكر مسئول.

والشعوب التي تقع في ذاك الشَرَكْ، هي شعوب ما زالت في مرحلة الطفولة المبكرة، أي أنها لم تبلغ سن الرشد بعد، وعليه.. فإن السلطة الحاكمة تتعامل معها تعامل الوَلِّي مع القاصر، فإن كان الولي تقيًّا حفظ مال القاصر، وإن كان الولي «يأكل مال النبي»، فقل على أموال القاصر السلام.

صناعة الوهم

الوهم مرض نفسي يُكون صورة ذهنية خيالية مغايرة للواقع، تُسيطر على كيان الموهوم لدرجة تتعطل معها حواسه، فيبصر خلاف ما تراه عيناه، ويسمع خلاف ما تسمعه أذناه.

هذه الطائفة من الناس: الظن عندها أقوى من الحقيقة، والغيب أقوى من الشهادة، والخيال أقوى من الحواس، ويبلغ تأثير الوهم على الموهوم درجة تولد عنده حالة رفض ونفور من رؤية أو سماع أي شيء يخالف الوهم المسيطر عليه.

هذه الطائفة من الناس هي الظهير القوي لبقاء النظم الاستبدادية الفاشلة؛ولذلك تسعي النظم الاستبدادية الفاشلة للسيطرة بالوهم على أكبر عدد ممكن من مواطنيها.

وصناعة الوهم الذي تمارسه تلك النظم يرتكز على: (العاطفة-الرغبة-الرهبة)، وتشترك هذه الوسائل جميعها في أنها تعطل الحواس، فالعاطفة(حبًّا أو كرهًا) تُعمي وتُصِم، أو كما يقولون: مرآة الحب عمياء، والتلاعب بالعواطف أصبح من خلال الإعلام أمرًا ميسورًا، فبصورة مُختَلَقة أو بصورة تُظهر نصف الحقيقة تستطيع توجيه عاطفة الجماهير.

والرغبة: تحول الصحراء في عين الظمآن ماءً، وتحول "الكفتة" في عين المريض علاجًا، وتحول الشعارات والأغاني الوطنية إلى إنجازات، وفتوحات، وانتصارات.

أما الرهبة، فهي وسيلة العصر المثلى في صناعة الوهم، والإرهاب مشتق منها، ولن تجد على وجه البسيطة مواطنًا محاصرًا بالإرهاب صوتًا وصورةً وتأكيدًا وتكرارًا مثل المواطن العربي.

وتأثير الرهبة في تعطيل الحواس أقوى من العاطفة والرغبة، فبتأثير الرهبة يتحول المواطن إلى فأر يرى القط أسدًا، وتصبح أبلغ أمانيه: جحر يختبئ فيه، أو سقف يؤيه، وسلطة بالعصا الغليظة تحميه.

فهل هناك مواطن أصلح من هذا المواطن الموهوم لأي سلطة فاشلة مستبدة ؟!.

خطورة هذا السلاح أنه سريع العدوى والانتشار، ويخلق طائفة من الشعب تستعذب الكذب الذي يُمارس عليها وتبحث عنه وتتبناه وتروجه!.

وتتحول هذه الطائفة إلى عدو لكل من يحاول إيقاظها من أوهامها، ويتولد عندها حالة رفض داخلية لسماع أو رؤية ما يكشف زيف أوهامها، وبتأثير الوهم يتولد عندها استعداد للسير مرات ومرات في ذات الطريق الذي أوردها المهالك، وهي تنتظر نتيجة مغايرة.!!

أخطر ما في الوهم يا سادة يا كرام: أنه ليس مرضًا فكريًّا يُصلحه العلم والمعرفة والنقاش والإقناع، ولكنه مرض نفسي، وحين يستفحل أمره ويتفشى في شعب من الشعوب، قد لا يصلحه سوى صدمة عنيفة توقظه من أوهامه كما حدث لنا في هزيمة 1967.

■■■

قانون الطفو في السياسة والاجتماع

قانون الطفو في سياسة الدول المتخلفة يعني حماية تلك الدول من الغرق، ومنعها من الإبحار، فغرق هذه الدول المتخلفة سيحرم العالم من سوق رائجة لبضاعته وسلاحه، وسيحرمه من ثروات تلك الدول وخاماتها وطاقاتها البشرية.

وإبحار الدول المتخلفة من حالة الطفو سيجعلها تستثمر ثرواتها وتُفَعّل طاقاتها وتصل لحد المنافسة أو حتى المغالبة للدول المسيطرة.

إذًا.. الحل أن تبقى هذه الدول طافية.. لا هي غارقة، ولا هي مُبحرة.

على هذا القانون استقرت السياسة الغربية ضد الشرق لعدة عقود، وفي هذا الإطار تستطيع أن تفهم إمداد الغرب الأطراف المتقاتلة على أراضينا بالسلاح والدعم أيًّا كان توجهها، وتستطيع أن تفهم معنى المؤتمرات الاقتصادية الداعمة ومؤتمر إعمار غزة ومؤتمر أصدقاء سورية....

فكلها تنفض عن شعارات ووعود مُسَكنة تحاول الإبقاء على حالة الطفو لتلك الكيانات كي تستمر في دور العبد الخادم لأسياده.

وتستطيع أن تفهم أيضًا سر تلك العاصفة الهوجاء التي حلت بعالمنا العربي لمجرد محاولتنا الإبحار والإفلات من حالة الطفو.

قانون الطفو يا سادة يا كرام يستلزم صناعة الفراغ، أي تفريغ المجتمع من قيم التقدم والإبحار، فلا العلم في تلك البلاد علمًا، ولا الفن فنًّا، ولا الدين

دينًا..كلها تتحول لشعارات فارغة من محتواها، ويتحول المجتمع إلى فراغ تملؤه التفاهة، وفقدان الهدف، وضياع الهوية، وغياب الوعي.

في هذا المجتمع الفارغ ثروة بلا استثمار، وسواعد بلا إنتاج، وأموال بلا فاعلية، ودين بلا تأثير، وعقول بلا تفكير، وثقافة بلا أصالة....إنه الفراغ.. التفاهة..التيه.

إنه قانون الطفو.!

وقانون الطفو يستلزم محاربة أي محاولة لإبحار المجتمع نحو امتلاك الإرادة وتحرير الإنسان، ستهب علينا كل العواصف والأنواء في اللحظة التي نبحر فيها نحو صناعة دوائنا وسلاحنا وإنتاج غذائنا، سيحاولون كسر الأشرعة وخرق السفينة في اللحظة التي نبحر فيها نحو تحرير الإنسان واستعادة الهوية والعودة إلي الذات.

وهذه هي الحالة التي نعيشها اليوم لمجرد أننا حاولنا الإبحار وهم يريدون إعادتنا لمرحلة الطفو.

قانون يجب أن نعلمه ومعوقات يجب أن ندركها ونقدرها؛ لتكون نورًا لمن يحاول الإبحار من الماء الآسن الراكد الذي نطفو علي سطحه

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يوسف: **21**).

■■■

مواطنون أم زبائن؟!

بعد عقود من التخلف والغيبوبة بتأثير "حرب الأفيون" والتفكك بسبب الغزو الخارجي والحرب الأهلية، بدأت الصين في منتصف القرن العشرين النهوض من كبوتها.

كان الغرب تحت قيادته الاستعمارية الجديدة "الولايات المتحدة الأمريكية" يضع عينه على الصين بصفتها الزبون المنتظر للرأسمالية الأمريكية والغربية لامتلاكها ثروة بشرية (زبائن) في هذا الوقت عددهم سبعمائة مليون إنسان بخلاف الثروات الطبيعية الهائلة.

كان أمام الصين أحد طريقين: إما توظيف ثروتها البشرية لاستثمار مواردها الطبيعية وبناء الصين بسواعد صينية، وإما تحويل الصين إلى سوق رأسمالي يستثمر فيه الغرب، وتنمو الصين سريعًا، ويزداد فيها المال ووسائل الرفاهية، ويأكل أهلها الكنتاكي والهامبورجر، وهو طريق سهل للحصول على الدعم الأمريكي الغربي مقابل التخلي عن الخصوصية الثقافية والإرادة السياسية.

اختارت الصين الطريق الأول، الطريق الشاق الطبيعي لأي بناء.

وقف العالم كله بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية أمام الصين، وحاصرها وعاقبها عقابًا جماعيًّا، وحرم أمة تعدادها 700 مليون إنسان من عضوية الأمم المتحدة، صمدت الصين أمام الضغوط، نحتت في صخرة تربتها، تشبثت بأصالة ثقافتها، ...خمسة عقود وأجيال تحرث وتبذر وتزرع؛ لتأتي أجيال اليوم والغد لتنعم بالحصاد.

ولا نريد أن نتوسع في تجارب أخرى، ولا نريد أن ندخل في تفاصيل نظام سياسي من الخطأ استنساخه، ولكن يقفز إلى الذهن مباشرة تجربة مصر في منتصف السبعينيات؛ حيث قررت تحت مسمى "الانفتاح" أن تدخل كـ"زبون" جديد مُرحب به كمستهلك لمنتجات الغرب، وبالفعل نشأت طبقة من الأثرياء، وتوسع الناس في الكماليات، ولكن بمقدورك أن تقارن بين مستوى الزراعة والصناعة والخدمات التعليمية والصحة قبل وبعد أن أصبحنا زبائن؛ لتعرف الفارق بين سياسة بناء وطن وسياسة بناء زبون جديد.

وأختم بموقف معبر حدث معي حين اصطحبت والد زوجتي إلى أحد النوادي العريقة في الإسكندرية، وكان قد تجاوز الثمانين من عمره، وكان رجلًا مديد القامة رشيق الجسم، يعلو محياه وقار وهيبة، وكان بلحيته البيضاء شديد الشبه (بشكل ملفت) لأنطوني كوين في دور عمر المختار، وكان يصر (رحمه الله) على ارتداء الزي الريفي (الجلباب والشال والعباءة)، فرفضت إدارة النادي دخوله لعدم التزامه بالزي "الإفرنجي".

هذا نموذج للحرث الثقافي لتهيئة التربة لإنبات زبائن؛ حيث ازدراء واحتقار الذات بتاريخها وتقاليدها وعاداتها ولغتها وعقيدتها، وحيث يكون تقييم الإنسانعلى أسس الاستهلاك: ماذا يلبس ويركب؟ وفي أي المطاعم يأكل؟!

يا عزيزي، من السهل أن تفتح بلادك للاستثمارات الأجنبية، وتصبح "زبون" في سوق الرأسمالية، وتفرح وتصفق لأراضٍ تخصصها لمشروع كذا وكذا، ويزداد ثراء الأثرياء وفقر الفقراء، وتعيش في مجتمع.. قيمة الإنسان فيه على قدر استهلاكه، ونوعية استهلاكه، ولكن من الصعب أن تبني وطنًا وتصنع حضارة وتمتلك إرادة وتحفظ ثقافة وتؤدي رسالة؛لأنه للأسف.. هذا الطريق لاتبنيه الأغاني الوطنية ولا الرقصات الفلكلورية ولا الشعارات الفهلوية.!!

قبل أن تبيدوا

جزء لا ينفصل عن قراءة المشهد الحالي الذي نقف فيه وجهًا لوجه مع مشروع الهيمنة الغربي؛ هو قراءة تاريخ السلب والنهب الذي قامت به الحضارة الغربية.

هذه الحضارة التي تقوم في بُعدها الفلسفي على سيادة الرجل الأبيض، فمنذ الحضارة اليونانية قسمت الفلسفة الأفلاطونية البشر إلى صنفين: (يونان عاقلين، وبرابرة متوحشين)، وعلى ذات الدرب سار «أرسطو» وبرر فلسفته بأن الطبيعة أعطت لأجسام اليونانيين ما لم تعطه للبرابرة (غير اليونانيين).

بهذه النظرة المتعالية أبادت الحضارة الغربية حضارات بأكملها من أجل الهيمنة والسيطرة والسلب والنهب، أبادوا حضارة الهنود الحمر للسيطرة على العالم الجديد (الأمريكتين)، واعتبروها أرضًا بلا شعب (لأن سكانها من البرابرة) في حين أن كتب التاريخ تذكر (أن الأسبان أصابتهم الدهشة حين وصلوا إلى العالم الجديد، ووجدوا نُظمًا متقدمة في الصناعة والزراعة والاقتصاد بما فيها نظم متعددة للري، وتسوية المنحدرات الجبلية، وبناء الجزر الصناعية في البحيرات، ووجدوا أسواقًا لم يشاهدوا مثلها في الاتساع وحُسن الترتيب والنظام والكثرة من الناس في أسواق أوروبا)

(نقلًا عن كتاب الحمر والبيض والسود تأليف: Gary B. Nash)

وبالتزامن مع إبادة الحضارة الهندية بدأت الهجمة على أفريقيا لاستجلابهم كعبيد في العالم الجديد، ويصور نفس الكاتب ما كانت عليه

أفريقيا في القرن الخامس عشر، » لم تكن الفجوة الحضارية بين الشعوب الأوروبية والأفريقية كبيرة، فقد كان في أفريقيا عدة ممالك مستقرة مثل إمبراطورية مالي وعاصمتها «تومبُكتو» المشهورة بثرائها الواسع وجامعتها الإسلامية التي بها هيئة تدريس ممتازة، وممالك أخرى أصغر مثل مملكة غانا، والكونغو، وبنين، وقد مَهر السكان الأفارقة في أعمال المعادن والنسيج والصناعات الخزفية والمشغولات الفنية الدقيقة، وضارع كثير من مدنها المدن الأوروبية في حجمها..»

تم استنزاف هذه الحضارة على مدار أربعة قرون من الزمان(ومازال)، تم خلالها القيام بأكبر إبادة جماعية عرفها التاريخ بنقل عشرة ملايين أفريقي للعمل كعبيد في العالم الجديد، والعشرة ملايين هؤلاء هم الناجون من مائة مليون أفريقيًّا قضى معظمهم غرقًا في الطريق أو انتحارًا أو مرضًا وجوعًا.

وكان من آثار انتعاش تجارة العبيد، ترك الأفارقة لصناعتهم وزراعتهم وتجارتهم، وممارسة أعمال الإغارة والسلب بين القبائل للحصول على العبيد، وبادت ممالك وانحطت أمم، واندثرت فنون.

وحتى لا نذهب بعيدًا ففي القرن العشرين مارست الحضارة الأوروبية واحدة من أخس وأحط الوسائل للسيطرة على حضارة كبيرة وأمة عظيمة، وذلك فيما عُرِف بحرب «الأفيون» ضد الصين، فالغرب في سبيل السيطرة والهيمنة والاستغلال لا يعرف أسلحة أو وسائل محرمة، فكل الأسلحة مسموحة، وكل الوسائل مشروعة، الفارق بين الغرب بالأمس واليوم هو فقط بعض مساحيق التجميل العصرية، فهو اليوم يخوض حربه الضروس ضد الحضارة الإسلامية باسم: الحرية، حقوق الإنسان، حقوق المرأة، البحث عن

أسلحة دمار؛وصولًا إلى «محاربة الإرهاب»

صورة واضحة ليست في حاجة إلى إلقاء مزيد من الضوء حتى توقظ النائم، وتحرك المُقعَد، ولكن من وراء هذه الصورة رسالة يجب أن نعيها جيدًا.

الأمر الأول: طمع الغرب في السيطرة والهيمنة ليس قدرًا لا نملك إلا الاستسلام له، فالصين التي مارسوا ضدها حرب الأفيون هي اليوم قوة عظمى، والهند التي سلبوا خيراتها واستعبدوها قرونًا هي اليوم دولة عظمى.

الأمر الثاني: أنه لولا الإسلام دينًا وعقيدة لبادت حضارة تلك المنطقة من العالم، ولتبدلت لغتها ولصارت تمامًا مثل الهنود الحمر بعض آثار يستخدمها الغرب لزوم الجذب السياحي.

والغرب يعلم تمامًا هذه الحقيقة؛ ولذلك فالحرب الخفية في هذا الصراع هي: (الحرب ضد الهوية الإسلامية).

ولزوم العصرنة والتجمل لا يقوم الغرب وحده بتلك الأعمال القذرة، بل يوظف وكلاء عنه يمارسون نفس دور موردي العبيد من القبائل الأفريقية،

ففي سوق النخاسة هناك وظيفة مربحة يقوم بها كتائب من خُدام مشروع السلب والنهب الغربي، مهمتهم الأولي حرث الأرض وتمهيدها لخدمة مشروع السلب والنهب الغربي بضرب الهوية الإسلامية، وقتل روح المقاومة.

صورة واضحة، ما عليك إلا أن تتأملها لتمتلك أسلحتك في معركة الوعي:

اقرأ، تعلم، حلل، افهم...، قاوم، قاوم، قاوم...من هنا نبدأ.

■■■

أسطورة الطوفان

تقول الأسطورة اليونانية إن «زوس» كبير آلهة اليونان قرر إفناء البشر بالطوفان عقابًا لهم على تفشي الظلم، واختار رجلًا صالحًا وامرأةً صالحة ليستثنيهما من الغرق، وليبدأ بهما ذرية صالحة لعمارة الأرض.

وجاء الطوفان ومحي المجتمع الظالم، ثم أوحى «زوس» للرجل والمرأة أن يأخذا من أمهما الأرض بعض الحجارة، ويقذفا بها من خلف ظهرهما، وما سقط من حجارة الرجل على الأرض أنبتت رجالًا، وما سقط من حجارة المرأة أنبتت نساءً، وبدأت حياة جديدة صالحة خالية من الظلم.

هذه هي الأسطورة، والأساطير هي ثمرة من ثمار الفكر الإنساني يعبر عن طموح الإنسان وأشواقه وأحلامه في صورتها البِكْر، فلماذا يصل الفكر الإنساني إلى اختيار الطوفان كأحد الحلول لإنشاء مجتمع بديل لمجتمع تفشى فيه الظلم على ما في الطوفان من دمار وخراب ومآسي لاتستثني ظالمًا ولا مظلومًا.؟!

إنه شعور عجيب، خليط بين الحب والكراهية.. بين القوة والعجز.. بين الأمل واليأس، شعور يمزق الإنسان الحر بين حب العدل، وكراهية الظلم.. بين قوة الغضب ضد الظلم، والعجز عن تحقيق العدل.. بين الأمل في مستقبل أفضل، واليأس من الوصول إليه.

شعور دفع نبيًّا من أنبياء الله إلى أن يدعو بخراب ودمار الأرض: (رب لاتذر علي الأرض من الكافرين ديارًا)

شعور يدفع بعض المواطنين في العالم العربي للفرح بحدوث كارثة بيئية أو حادثة مروعة قد يموت هو نفسه أو يمرض أو تهلك ممتلكاته من آثارها، فقط لأنه يأمل أنها تحدث ثقبًا في سد الظلم والطغيان الذي يوقف سريان ماء تطهير هذا الظلم والطغيان.

على من يقع اللوم؟!على سيدنا نوح الذي دعا قومه ليلًا ونهارًا فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا من دعوة الحق؟!، أم على هؤلاء الظالمين الذين سخروا منه، وآذوه، وأقاموا السدود للصد عن دعوته؟!

جاءت ثورات الربيع العربي لتحدث ثقبًا في جدار الفساد والطغيان الذي يمنع سريان ماء التغيير والتطهير، ثم سرعان ماجمع أهل الفساد صفوفهم لترميم السد.

ويبقي المجتمع تمامًا كجسم الإنسان إذا انسدت الشرايين علا ضغط الدم، وإذا تم إهمال الضغط يحدث الانفجار في المخ، وهكذا المجتمع إذا أقيمت السدود في طريق سريانه في مجري التاريخ، فإما أن يركد ويأسن ويتعفن، أو يحطم السدود ويعم الطوفان.

ويظل حلم الإنسان الحر في مجتمع الحرية والعدل أقوى من الطوفان، أو كما تقول الأسطورة، بأن الأرض بعد الطوفان ستنبت رجالًا ونساءً صالحين لعمارة الأرض من جديد.

■■■

بداية التغيير من المجتمع أم النظام؟

شعب واحد يفصله نظامان سياسيان مختلفان، جعلا من كل شعب يعيش في عالمًا مختلفًا.

ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية...

تحولت ألمانيا الشرقية المحتلة من روسيا بعد الحرب العالمية الثانية إلى النظام الشيوعي بكل سماته الديكتاتورية، وسمي نفسه "ألمانيا الديمقراطية"!، وسلط أجهزة دعايته ضد ألمانيا الغربية واصفًا إياها بالدولة "الفاشية"!، وشأنه شأن كل نظام فاسد جمع حوله مجموعة من المنتفعين واستمال بدعايته طائفة من الشعب، وظلت أشواق الحرية تدفع طائفة أخرى للفرار من جحيم الديكتاتورية، وفي خلال عشر سنوات هاجر من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية ثلاثة ملايين معظمهم من المتعلمين الأكفاء، أحس النظام الشرقي بالخطر من تفريغ البلاد من كفاءاتها، وبصفته نظام ديكتاتوري منغلق، بدلًا من أن يفكر في تطوير نظامه السياسي وتخفيف قبضته عن المواطنين، أنشأ سورًا؛ ليسجن خلفه أبناء ألمانيا الشرقية، وفي خلال الفترة بين إنشائه عام 1961، وهدمه في عام 1989 قُتل برصاص جنود الحدود المئات ممن حاولوا الهرب، فضلًا عن آلاف المقبوض عليهم بتهمة الخيانة ومحاولة الهرب إلى دولة معادية.

ومازال في حاضرنا مثل قائم في كوريا الشمالية والجنوبية، شعب واحد يعيش عالمين مختلفين تمامًا، والسبب ليس اختلاف ثقافات ولا كفاءات ولا موارد، السبب هو: "النظام السياسي"

ويبقى السؤال الكبير: هل الإصلاح يبدأ من المجتمع أم من نظام الحكم؟

لاشك أنه سؤال يحصر المفكر في دائرة أشبه بدائرة البيضة والدجاجة وأيهما أولًا.

فإن قال قائل: إن الإصلاح يبدأ من المجتمع مستندًا إلى الحكمة القائلة: "كيفما تكونوا يُوَلى عليكم"، فإن ما صارت تملكه الدول من سيطرة على أدوات التوجيه والتأثير من مؤسسات ثقافية وتعليمية وإعلامية وفنية، يجعلنا نقول أيضًا بثقة: "كيفما يُوَلّى عليكم تكونوا." أو كما كان الأقدمون يقولون: "الناس على دين ملوكهم."

فكل التجارب حولنا تقول: إن النظام السياسي هو عنصر أساسي مؤثر في سلوك الشعب وثقافته فضلًا عن رقيه واستقراره.

ويبقي سؤال آخر مهم: كيف يمكن أن يتغير نظام فاسد أثر بفساده في إفساد قطاع كبير من الشعب؟

ولمحاولة الإجابة نعود للنموذج الألماني، فقد كان مجتمعًا يحمل الصفات المشتركة لأي مجتمع تحت الحكم الديكتاتوري، طائفة من المنتفعين والفاسدين والوصوليين، وطائفة كبيرة من الصامتين والهامشيين، وقلة من المعارضين المضطهدين، وفجأة عام 1989 يعلن عضو المكتب السياسي للحزب الاشتراكي أثناء حوار إعلامي -عن طريق الخطأ- أن قيود التنقل بين الألمانيتين قد رُفعت.

كان هذا التصريح بمثابة الثقب الذي ثقب جدار الخوف والقهر، فانطلقت أشواق الحرية المكبوتة في صدور مقهورة، وتوافد المواطنون بتلقائية على جانبي الجدار، وبدءوا يهدمونه بما تيسر في أيديهم، وانهار الجدار، وانهار معه النظام،

بدون إراقة قطرة دم واحدة، وأصبح الشعب الألماني الذي كانت تلك صفاته، هو الشعب الذي يراه الكثير شعبًا نموذجيًّا، في ظل نظام سياسي رشيد.

والعجيب أيضًا أن بعدها بسنوات كان الأخ الأكبر "الاتحاد السوفيتي" ينال نفس المصير، وفجأة، وبلا مقدمات، ودون إراقة قطرة دم واحدة.

لا نقول من وراء هذا المثل انتظروا المعجزة، أو انتظروا الصدفة السعيدة لإسقاط نظام ديكتاتوري، فبجانب هذا المثل هناك أمثلة دموية مثل نهاية نظام مشابه في رومانيا.

ولكن تظل هناك سمة مشتركة لكل النظم الديكتاتورية وهي انهيارها المفاجئ دون مقدمات، فطاقة الغضب مكبوتة تحت غلاف مزيف من الهدوء، ويبدو ظاهر الدولة هادئًا، وعلى ما يرام حتى أول ثقب في جدار الصمت والخوف، وهناك يد الله تعمل في الخفاء، وبيده وحده هلاك الظالمين كيفما شاء ووقتما شاء.

نعود ونقول: إن الشعوب قابلة للتغيير وبسرعة فائقة، إذا توفر لها نظام سياسي رشيد، فإذا رأيت بلدًا غارقًا في الجهل والمرض والتخلف، ويعاني من أمراض اجتماعية مهلكة، برغم ما يمتلكه من موارد بشرية وطبيعية وتجانس اجتماعي؛" ابحث عن النظام السياسي "قياسًا على قول الفرنسيين (cherche la femme) "ابحث عن المرأة "

■■■

غريزة الخوف واستغلالها سياسيًّا

الكاتب الراحل «خالد محمد خالد» كتب في أحد مقالاته في أخريات حياته أنه سيعطي صوته لـ"حسني مبارك" في انتخابات الرئاسة.

"خالد محمد خالد" بالنسبة لي، شخص لا أستطيع اتهامه بمداهنة السلطة أو التربح من ورائها، فهو من الكتاب القلائل أصحاب المواقف في الحقبة الناصرية، فضلًا عن أنه سخر قلمه للدفاع عن الحرية والديمقراطية منذ صدور كتابه في أواخر الأربعينيات "مواطنون لا رعايا"، وحتى وفاته.

فلماذا إذًا يتخذ هذا الموقف؟!

أغلب الظن أنه بدافع غريزة الخوف.!

كيف، وهو صاحب الكلمة الجريئة؟!

هذا موضوع آخر.. فهو في النهاية إنسان شأنه شأن الناس جميعًا، لهم أرواح تشدهم للأعلى وتدفعهم للطموح والحلم والأمل والتغيير، ولهم غرائز منها الخوف، وحب البقاء..ويزيد من عمق غريزة الخوف، البعد الثقافي للشعب، فهناك شعوب موروثها الثقافي يقوم على المغامرة والمخاطرة.

فالرئيس الأمريكي السابق "بيل كلينتون" يخاطب الشعب الأمريكي قبيل انتخابات الرئاسة للفترة الثانية لولايته في كتابه، "بين الأمل والتاريخ": (للتاريخ عادة في اختبارنا كأفراد وكأمة، إذ اعتاد أن يطلب منا أن نختار بين آمالنا ومخاوفنا، .. ولقد قدم التاريخ أمريكا غالبًا وهي تختار الأمل على الخوف)

إنه يُسَّوِق نفسه بهذه اللغة؛ لأنه يخاطب شعبًا تكَّون من مهاجرين مغامرين طموحين يسعون دائمًا للتغيير والمخاطرة من أجل الربح.. هذه هي ثقافة مجتمعه، أما "حسني مبارك" فحين يقدم نفسه لشعبه يرتكز على ركيزتين أساسيتين:

الأولى: أنه صاحب الضربة الجوية الأولى (يعني بطل وقوي و"دكر")

والثانية: الاستقرار.

والاستقرار هنا ليس هو المفهوم المستقر في العلوم السياسية القائم على: بناء دولة المؤسسات، والفصل بين السلطات، وسيادة القانون، وإرساء قواعد الحرية والمساواة، والعمل على التنمية والتقدم والبناء...

كلا يا عزيزي، مفهوم الاستقرار المباركي أن مصر لا تكون مثل العراق والصومال وأفغانستان... مفهوم ولغة خطاب تغازل غريزة الخوف، وتدعو الشعب إلى الركون والجمود والسكون، خوفًا من حركة أو تغيير لاتدري إلي أين ستأخذنا.!!

إنه يخاطب الشعب باللغة التي تتفق مع تربية وثقافة القطاع الأعظم منه، فالشعب تربى زمنًا على أن "الحيطان لها ودان".. "ومن خاف سَلِم"....

ويستوقفني مثل ريفي عجيب غريب، يقول "امشي سَنَة ولا تعدي قناة.!!"

- والقناة عند أهلنا في الريف هي أضيق مجري مائي بحيث لايتجاوز عرضها مترًا واحدًا-

يا سلام... يا سلام...

يعني تضيع من وقتك سنة وتخسر الفرص وتضيع الجهد والوقت؛ حتى لا تخاطر وتغامر وتعبر قناة.!!

شيء يفقع المرارة..

يعني نفترض أنك وقعت وأنت تقفز فوق القناة، .. عادي يعني.. ستقوم مرة أخري وتستأنف السير، ومع تكرار التجربة ستحترف القفز.!!

هذه الثقافة تم استغلالها جيدًا ممن يريدون بقاء هذه الأمة في حال من الجمود والركود والسكون، أو باللغة العسكرية (الجري في المحل).

ومازال وتر الخوف هو الوتر الحساس الذي يعزف عليه قادة لايمكن بأي حال أن يكونوا أهلًا للقيادة، أو يكون معهم أي أمل في التحرك سوى: (للخلف دُر)

■■■

أرفض العيش في مملكة النحل

بيت النحلة في غاية الدقة والإتقان، يبنيه جيش من النحل، كل فرد في الجيش يعرف وظيفته، ولكل منهم درجته الوظيفية في هذا الجيش.

ولكن السؤال المهم هو: برغم الدقة المتناهية والنظام البديع والالتزام الوظيفي، هل تطور بيت النحل منذ نشأته إلى الآن؟!!

وهل من الممكن لهذا الجيش من النحل بهذا النمط أن يغير بيته في المستقبل؟!!

وفي المقابل.. هل احتفظ بيت الإنسان بشكله أم تطور!؟

هل من الممكن تخيل وضع ثابت يلتزم به كل الناس لشكل بيوتهم؟

وهنا بيت القصيد.

فبيت الإنسان يتكون أولًا في خيال الإنسان قبل أن يحوله إلى واقع، فالإنسان يختلف عن سائر المخلوقات بما وهبه الله من خيال وإبداع وابتكار وإرادة حرة للاختيار، ويوم يفقد المجتمع الإنساني تلك الصفات الإنسانية فهو يفقد أخص خصوصيات الإنسانية، ويتحول إلى مجتمع "حَشَري"، وقد خاضت بعض النظم السياسية تلك التجربة بالفعل، فالنظم الشيوعية والفاشية والعسكرية حاولت تحويل مجتمعاتها إلي معسكرات عمل، وبالفعل نجح بعضها من خلال النظم الصارمة في خلق منظومة إنتاج ناجحة من خلال معسكرات العمل الصناعية، والمزارع التعاونية، وبدت مجتمعاتها كخلية

نحل دقيقة منظمة لها ملك وشغالة ويعاسيب، واستطاعت أن تبني بيوتًا ومصانع وأسلحة وتكنولوجيا....

ثم ماذا كانت النتيجة؟

اكتشف الإنسان أن تقليص دوره إلى مجرد وظيفة إنتاجية استهلاكية- حتى لو كان له مكان في عمليات الإنتاج والاستهلاك- هو عملية منظمة لسلب إنسانيته، وأي نظام من شأنه أن ينزع عنه تلك الحرية ويعفيه من مسئولية الاختيار الحر، هو نظام غير إنساني ولو ادعى ألف مرة أنه أدرى بمصلحة الناس.

ومن ثم انهارت تلك المجتمعات أمام التطور المستمر للإنسان وتطلعه الفطري للحرية والإبداع والاختيار والمسئولية، ومن هنا رفضت كل المجتمعات المتطورة هذه النظم "الحشرية" البائدة.

ولكن يبقى للثقافة دورها في هذا الإطار.

فالعيش المنظم في مجتمع "حَشَري" هو مطلب مريح لمن تعوّد عليه، فكثير من الناس يعشق عيشة النحل، يتبع أوامر الملكة ويثق في عقلها المدبر ويكتفي بوظيفة "الشغالة أو اليعسوب"؛ ليضمن له مكانًا داخل الخلية.

ولهذا لا تستغرب أن تجد الأستاذ الدكتور المتخصص في علم النفس يقترح في برنامج تليفزيوني إدخال الأطفال للجيش من سن ثلاث سنوات، وبحد تعبيره: "يبقى فيه-جيشي 1 وجيشي 2 - على غرار- كي جي 1 وكي جي 2 - ليتعلموا النظام والضبط والربط وتبقى البلد كلها جيش "!!

وأحد المهندسين الزملاء ضخم الجثة -الطول مترين والعرض عرضين- أراد أن يقنعني بالعيش في مملكة النحل فقال لي: (نحن مثل من يعيش في غرفة مظلمة ومجموعة محدودة منا "مملكة النحل" تملك خرائط

المكان وتحفظ تفاصيله وتستطيع التحرك داخله، أما نحن فإذا أردنا أن نتحرك بأنفسنا في هذا المكان، فسنتعثر في الظلام، وقد نكسر محتوياته أثناء حركتنا، أو ننكسر نحن).!

قلت: ولماذا تعشق الظلام، وتألف العيش فيه؟! لماذا لا تفكر في إشعال الضوء؟! لماذا تخافون من النور؟!

ألا تستحِم يا رجل..؟!! لقد زكمت رائحتُك أنف الوطن.

يا عزيزي، أنا أرفض العيش في الظلام حتى لو فقدت كل الوسائل سوى نور الإيمان في قلبي بخالقي وديني، وبأنني إنسان.

أرفض العيش كحشرة، حتى لو كنت غارقًا في عسل.. مملكة النحل.

■■■

زرقاء اليمامة ترسل تحذيرها الأخير

قديمًا رأيت جنودًا يتخفون خلف أفرع الشجر..

لم أميز سوى حركةٍ للشجر..

قلت يا قوم رأيت على المدى حركةً للشجر..

اذهبوا يا قوم وتحروا الخبر..

سخر القوم مني واتهموني بالخرف..

داهم الجيش قومي النائمين على ديباج السُرُر..

قتلوا الأطفال والعذارى في الخُدُر..

واليوم أرسل لكم ندائي الأخير يا عرب..

يا قوم، الدب دخل أرضكم..

سورية قلب العروبة تحتضر..

الدب يقترب من الحَرَم..

الدب دخل سورية محاطًا بتصفيق الشرق والغرب وجمهرة من العرب، كلهم في غرفة عمليات واحدة لإدارة معركة بقاء الأسد على أشلاء الوطن.

"أوباما" يصرح بأنه لن ينجَّر لمواجهة مع الدب الروسي على الأرض السورية.

"ميركل" تصرح بأنه لا حل للأزمة السورية بدون روسيا.

شركاؤهم العرب من على منصة الأمم المتحدة يحذرون من أن سقوط النظام المجرم سيكون خطرًا على إسرائيل.!

ألم أقل لكم: الملعب صار مكشوفًا يا عرب؟!!

الحقيقة صارت عارية أمامكم فأين تهربون؟!

طأطأتم رؤوسكم أملًا في مرور العاصفة فاحتوشتكم وأحاطت بكم العواصف من فوقكم ومن أسفل منكم.

نمتم علي نغمة الاستقرار، ولو تأملتم أعمدة أسرتكم لرأيتموها تهتز مع نشرات الأخبار، لتتذركم أن دوركم آتٍ آت.

كممتم أفواهكم وخبأتم رؤوسكم في التراب خوفًا من صفير طواحين الهواء في معركة "محاربة الإرهاب".

يا شعوب العرب، والله لولا الإسلام دينكم، وكتابه بينكم، لكان مصيركم مصير الهنود الحمر.

فبرغم أنكم هدمتم حصونكم بأيديكم يوم فرطتم في هويتكم ودينكم، وبرغم أنكم قلّمتم بأيديكم مخالبكم، واقتلعتم أنيابكم يوم وجهتم سهامكم لصدور بني أوطانكم، ويوم أسلمتم خياركم لشراركم؛فمازالت جذور عقيدتكم في أرضكم ضاربة، عضوا عليها بالنواجذ، فبرغم ما تساقط من أوراق وتهدل من أغصان، فمازالت قلة من أغصانكم تلتف حول رقاب أعدائكم، ومازالت دماء شهدائكم تروي شجرتكم، ومازالت البراعم تنبت، ومازالت الروح تسري.

يا شعوب العرب،

يا من رضيتم بالحياة الدنيا، والدنيا جدًّا...

الموت لم ينتقِ من في الميادين والطرقات، إنه دخل عليكم المخادع واختطفكم من تحت الألحفة، وتعقب المختبئين منكم تحت الأسرة .

فموتوا ميتة شريفة، موتوا واقفين، موتوا هاتفين، موتوا رافضين.. واجهوا واقعكم.. لم يعد الهروب من الحقيقة ينفعكم، لم يعد أمامكم سوى خيارين لا حياد بينهما:مقاومة أو خضوع، كرامة أو ذل، وطنية أو خيانة، كونوا أو لا تكونوا.

■■■

ثالثًا: ثقافة وفكر

هل هؤلاء مثقفون؟

هل من ينتحلون في بلادنا لقب مثقف، بل ويحتكرونه، هل هم مثقفون أصلًا؟!وهل هؤلاء الذين يضعون السياسة الثقافية لمصر، هل هم مثقفون أصلًا ؟!

وللإجابة عن هذا السؤال نجيب أولًا عن: **من هو المثقف؟**

والإجابة عن هذا السؤال واسعة فضفاضة سنحاول الإمساك بها من طرفيها: أي أوسع التعريفات وأضيقها.

البعض يرى أن فئة المثقفين تشمل كل المشتغلين بالفكر، مثل: المعلمين- المحامين- الإعلاميين- الكتاب- الفنانين......

والبعض وضع حدودًا دنيا لمؤهلات المثقف مثل: الوعي، والفهم، والتفكير الصحيح، وسعة الأفق.

وإذا طبقت هذه الحدود الدنيا من المؤهلات سيخرج كثيرٌ من المشتغلين بالفكر من دائرة المثقفين، ويدخل بعض من يشتغلون بالأعمال البدنية كالعمال والفلاحين.

والبعض لا يراه مثقفًا حتى لو تحلى بهذه الحدود الدنيا إذا لم تنعكس هذه المؤهلات على سلوكه الشخصي وحركته في المجتمع.

والبعض لا يعطي لقب مثقف إلا لمن يقوم بدور الرسالة في قومه،

فليس مثقفًا من لا يعرف مشكلات بيئته ومجتمعه ويقدم لها حلولًا، ويشعر بالمسئولية تجاه النهوض بمجتمعه والاستعداد للتضحية في سبيل ذلك.

إذًا، نحن أمام تعريفات للمثقف تتسع لتشمل كثيرًا من المشتغلين بالفكر النابع من فهم ووعي ووضوح رؤية وسعة أُفق، وصولًا إلى دور الرسالة التي تشبه دور النبي في قومه.

وأحيانًا للخروج من هذا التباين في التعريف تجد كثيرًا ما يتم إضافة صفة تعريف للمثقف، فمثلًا تجد: مثقف ثوري مقابل مثقف تقليدي، ومثقف أصيل مقابل مثقف مُقلد، ومثقف حر مقابل مثقف السلطة.. وهكذا.

وبما أن المثقف والثقافة هو من الألفاظ المستحدثة تعريبًا لحالة نشأت في الغرب، إذًا لنعد إلى أصل تعريف المثقف نقلًا عن البيئة التي نُقل عنها اللفظ، وننقل هنا ما ذكره المفكر المغربي الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه «المثقفون في الحضارة العربية»: عن المرجعية التاريخية والسياسية والفكرية للفظ «المثقفين».

[والتي ظهرت لأول مرة في بيان نشرته جريدة لورو الفرنسية عام 1898 بعنوان «بيان المثقفين»موقَّعًا من مجموعة من المثقفين الفرنسيين من أمثال: إميل زولا وأناتول فرانس وغيرهم، يطالبون فيه بإعادة محاكمة ضابط فرنسي من أصل يهودي تم محاكمته وإدانته عام 1894 بالتجسس لصالح ألمانيا، وأثبتت عائلته زيف الوثائق التي أدين بسببها، واتجهوا إلى الرأي العام الفرنسي لدعم قضيتهم، فتبناها هؤلاء المثقفون.

بعد صدور البيان انقسم المجتمع الفرنسي معسكرين مؤيد (التجمع الجمهوري) ومعارض (الوطنيون)، وبعد صراع تم إعادة محاكمة الضابط وتبرئته]

إذًا، نحن هنا أمام تعريف المثقف (نقلًا عن بيئته الأصلية)، وهو ذلك الشخص الذي لا يكتفي بممارسة النشاط الفكري النابع من الوعي والفهم وسعة الأفق فقط، بل هو صاحب رسالة يبحث عن كشف الحقيقة، ويكون شجاعًا في الدفاع عنها مهما كلفه ذلك من صدام مع السلطة أيًّا كانت.

والمثقف الحقيقي هو من تتحول عنده الأفكار (Ideas) إلى نماذج ومُثُل (Ideals) لا تفرق بين عقيدة وعقيدة، أو لون ولون، أو جنس وجنس، أو توجه سياسي وآخر.

بمعنى أن المثقف هو ضمير المجتمع، وهو المعبر عن آلامه وآماله، وحامل مشعل النور في سبيل البلوغ لنظام سياسي واجتماعي أكثر إنسانية وعقلانية.

بعد هذه الجولة في تعريف المثقف، آن لنا أن نعود إلى السؤال:

هل اليساريون والليبراليون الذين احتكروا لأنفسهم لقب «مثقف»، هل هم مثقفون فعلًا؟

نظلمهم إذا قارناهم بالمعنى المجرد للمثقف!!.

إذًا، بأي تعريف مصاحب للقب مثقف يمكن أن نصنفهم؟

أشد المنصفين سيقول عنهم «مثقف سلطة»، ولكن إذا كان المتعارف عليه أن مثقف السلطة هو من يقوم بتبرير أفعال وسياسات السلطة،

فأنا أرى أن هذا اللقب قد تجاوزه هؤلاء.

إنهم يستحقون تعريفًا جديدًا هو: «موظف دولة بدرجة مثقف».

■■■

الثقافة والحضارة

نحن هنا أمام معنيين، يلتبسان على كثير من الباحثين فضلًا عن عموم الناس.

وأتصور أن من أكبر الأخطاء التي وقع فيها جيل الرواد من المثقفين، ومازال الخطأ مستمرًّا حتى الآن هو الخلط بين الحضارة والثقافة.

وحتى لا تتوه بنا بوصلة الطريق لا بد أن نفض الالتباس الحاصل بين الحضارة والثقافة.

الثقافة روح، والحضارة مادة.

الثقافة دين وفن وفلسفة وسلوك، والحضارة علم ومنتجات ووسائل ونُظُم.

الثقافة هي اكتشاف الذات، والحضارة هي اكتشاف الكون.

الثقافة هي الهوية، والهوية تعني: أنا، ذاتي، كياني، ديني ولغتي وتاريخي، اسمي وفصيلة دمي وعنواني.

والحضارة سوق، إذا دخلته بغير هوية، تُهتَ في دروبه، وكنت كالمريض الذي لم يشخص داءه، ويدخل صيدلية مليئة بالدواء، ولا يدري ما يناسبه فيها.

هذا بالضبط هو التيه الذي سرنا فيه ونحن نبحث عن طريق النهوض، خلطنا بين الهوية الثقافية وبين احتياجاتنا الحضارية.

تجد ذلك واضحًا في أفكار جيل الرواد فطه حسين يرى في كتابه: «مستقبل

الثقافة في مصر» الصادر في الثلاثينيات من القرن العشرين أن سبيل التقدم: «أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب»

فما هي الحضارة المقصودة هنا؟ هل هي العلم والاكتشاف والصناعة والتقنية والنظم الإدارية؟

يا ليتها كانت كذلك، ولكنها كانت تعني عندهم أن نلبس كما يلبسون، ونأكل كما يأكلون، وننظر للحياة كما ينظرون، ونتخذ من أسلوب الاستهلاك ما يتخذون، ومن التشريع ما يشرعون....، ....، ...، .

في حين نرى العظمة- كل العظمة- في هذا الفهم الواضح الجلي، ووضوح الرؤية في فض الالتباس بين الثقافة والحضارة في فهم واحد من ثمرات الرعيل الأول لجيل نشر الثقافة الإسلامية التي مهدت لظهور الحضارة الإسلامية متجسدًا في موقف «ربعي بن عامر» حين دخل على ملك الفرس وهو محاط بأثمن وسائل الحضارة من فَرش ورياش ولباس في وقتها.

وربعي بن عامر يضرب تلك الوسائل برمحه احتقارًا لها، ثم يتلو دستوره الثقافي الجديد: «جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام»

صورة واضحة جلية لجيل كان يعرف حق المعرفة؛ الفارق بين الثقافة والحضارة فتمسك بثقافته التي هي هويته ودينه وفنه وفلسفته، وأسس بثقافته حضارة جديدة استفادت من غيرها من الحضارات، واستخدمتها وطوعتها ضمن منظومتها الثقافية، ثم سادت الدنيا كلها ثقافة وحضارة.

هذا هو الطريق أيها التائهون.

المثقف بين الأصالة والتقليد

في المراحل المفصلية لنهضة الأمم تتعاظم الحاجة إلى طبقة المثقفين في المجتمع، فإن كانت الجماهير تمثل العاطفة الدافعة للتغيير، فإن طبقة المثقفين تمثل العقل الموجه لحركة المجتمع نحو التغيير المنشود.

ومن هنا كان دور النخبة المثقفة بارزًا في كل حالات التحول للأمم، والمثال البارز في هذا الصدد، هو دور النخبة المثقفة في عصر النهضة الأوروبية.

ومن هنا أيضًا تتوجه الأنظار إلى النخبة المثقفة المصرية؛ لتقوم بدورها المنشود لقيادة المجتمع من حالة الثورة أي حالة البناء والنهضة، ولكن هناك إشكالية تعيق البناء والنهضة سببها أن النخبة المثقفة في بلادنا تنقسم إلى مثقف أصيل ومثقف مقلد.

المثقف الأصيل هو الذي يحمل فكرًا ورؤية تنبع من جغرافيته، وتاريخه، وحاضره بما يحمله من آلام وآمال.

وهذا بالفعل مافعله مثقف عصر النهضة، فهو نشأ في بيئة الاستبداد السياسي والديني، فتشكل فكره على مقاومة الدين أو حصره داخل الكنيسة؛ لأن الدين بالنسبة له كممارسة فعلية على أرض الواقع معاديًا للعلم، ومشاركًا للسلطة السياسية المستبدة، ومتحالفًا مع الإقطاع.

وتشكل فكره على القومية في مقابل عالمية البابا الذي يحكم العالم باسم الكنيسة، بل ويفرض لغته اللاتينية.

فإذا بالطبقة المثقفة تعلن قوميتها إلى جوار لا دينيتها، وتنادي بلغتها الأم بديلًا عن اللاتينية، وتنادي بالنظام الديمقراطي؛ ليحل مكان القيصر والبابا.

هذه الطبقة المثقفة كانت أشجارًا باسقة نشأت في تربتها، وتغذت في جوِّها الطبيعي، فأثمرت فكرًا، وشكلت نهضة ظاهرة لكل باحث بين فترة ما قبل مثقفي عصر النهضة وما بعدها.

أما المثقف المقلد الذي جربته بلادنا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومازال بعضهم حتى الآن يتصدر المشهد في بلادنا.

فهم على العكس تمامًا، نقلوا لنا نفس فكر المثقف الغربي، وأبرز مافيه عزل الدين عن الحياة، فماذا كانت النتيجة؟

النتيجة كانت تحطم السد الذي يقف حائلًا في وجه نفوذ الاستعمار، ليس من الجهة العسكرية فقط، ولكن الأخطر هو التبعية الفكرية، والشعور أمام الغرب بالدونية للدرجة التي يرى فيها «طه حسين» في كتابة «مستقبل الثقافة في مصر» أن السبيل الوحيد للتقدم هو: «أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا؛ ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، وكذلك التبعية الاقتصادية، ليس فقط بالدوران في فلك التعامل الربوي، ولكن بجعل بلادنا سوقًا رائجة لاستهلاك منتجات الغرب.

ولا أظن أننا في مزيد من الحاجة لإثبات أن استيراد فكر المثقف الغربي لنزرعه في تربيتنا، كانت نتائجه عكسية تمامًا لنتائج زرعه في بيئته في الغرب.

ماذا نريد إذًا؟

نريد الطبقة المثقفة الأصلية، التي تنتج لنا فكرًا ينشأ من بيئتنا بما تحمله هذه البيئة من تاريخ وحضارة وهوية شكلت عقلنا وعاطفتنا.

ولا يختلف اثنان على أن الدين الإسلامي هو المكون الأساسي لتاريخنا وحضارتنا وهويتنا، وكما ذكر الدكتور الراحل «زكي نجيب محمود» في كتابه «هموم المثقفين» أن الخصائص الأساسية التي شكلت هوية هذا الشعب العظيم هي: «الدين والأسرة والوطن»

وفي استطلاع للرأي أجرته هيئة الإذاعة البريطانية منذ عامين تبين أن أكثر شعوب الأرض تدينًا هو الشعب المصري.

وديننا الذي يشكل هويتنا في حالة انسجام تام مع كل المعاني الإنسانية التي ترنو إليها شعوبنا، وهي تبني نهضتنا من حرية وكرامة واحترام للآخر، وحث على العلم والعمل والإنتاج ليس فقط كمعاني نظرية متأصلة في مصادر التشريع الإسلامي، ولكن كتاريخ وحضارة أنتجت وأثمرت وأثرت في العالم كله.

أما ما نحلم به، فهو أن تنتقل أمتنا بقيادة تلك الطبقة المثقفة الأصيلة من مرحلة النهضة والبناء إلى مرحلة حمل الرسالة، فنحن أمه رسالة: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم:**1**)

أما عنوان رسالتنا للعالم فهي «الخير» ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران: **104**)

■■■

هل يعود المثقف التائه؟

تكشف لنا قصة «قنديل أم هاشم» للراحل يحيي حقي، حالة الصراع التي عاشها المثقف في رحلته من حالة الاغتراب التي عاشها بعد عودته من الغرب إلى الوصول للتكيف مع مجتمعه، فشخصية «إسماعيل» الطبيب العائد من الغرب، تبدأ بشعور الغربة بمجرد وصوله إلى وطنه بعد الغيبة، غربة تصل إلى حد الازدراء لقومه، ثم الصدام مع حالة الجهل والخرافة التي تريد معالجة «عمش» خطيبته بزيت قنديل أم هاشم، فيحاول هو معالجتها بالعلم الذي تعلمه في أوروبا، فيفشل ويتسبب في عماها، فتزداد ثورته ويذهب إلى المسجد، ويكسر القنديل ويسكب الزيت، فيضربه الناس، ويهرب ويعيش حالة تيه، يعود بعدها إلى رشده، ويقرر العودة لعلاج خطيبته مستخدمًا علم أوروبا وزيت قنديل أم هاشم (علم أوروبا وروحانية الشرق)، فينجح في علاجه ويشفي المريض.

قصة حقيقية (كما يقول يحيي حقي) تحمل رمزية حالة الاغتراب التي عاشها المثقف العائد من الغرب، منهم من استمر في غربته، بل وتحول من الاغتراب إلى الكراهية والازدراء.

كما عبر عنها «سلامة موسى» في كتابه «اليوم والغد»: «كلما زادت معرفتي بالشر ق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها، هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرًّا وجهرة، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب».

ومنهم من عاش الغربة وأفاق منها سريعًا، كنموذج «توفيق الحكيم» بعد عودته من فرنسا كما ذكر لصديقه «أندريه» في رسالة من رسائله له، المجموعة في كتاب «زهرة العمر»:«... أعيش في جوٍّ فكري لا يستطيع أن يعيش فيه مثلي، أصدقاء الماضي أصبحوا لا يصلحون اليوم لي، فحديثهم ونكاتهم وطريق قتلهم للوقت مما يزهد في الجلوس إليهم، وإن شئت وصفًا دقيقًا لحالي فهو يتلخص في كلمة واحدة: الوحدة، الوحدة في أكمل وأقسى معانيها»، ومنهم من طالت غربته، ثم عاد لجذور ثقافته كنموذج الدكتور «زكي نجيب محمود»؛ حيث ذكر في مقال له بعنوان «قلم يتوب» أنه قلب في أوراقه القديمة فوجد فقرة، يقول فيها: «إنني في ساعات حلمي، أحلم لبلادي باليوم الذي أتمناه لها، فإنما أصورها لنفسي وقد كتبنا من اليسار إلى اليمين كما يكتبون (في الغرب)، وارتدينا من الثياب كما يرتدون، وأكلنا كما يأكلون، لنفكر كما يفكرون، وننظر إلى الدنيا بمثل ما ينظرون»، ثم ختم مقاله بقوله: «رأيت القلم الذي شطح ذات يوم في تطرفه نحو الغرب، قد عاد آخر الأمر إلى توبة يعتدل بها، فيكتب عن عروبة جديدة تكون هي الثقافة التي تصب جديدًا في وعاء قديم، أو تصب قديمًا في وعاء جديد».

وأَوَدُّ أن ألفت الانتباه إلى أن من عجيب أمر الثقافة أن لها روحًا تنبت من المكان والزمان والنشأة والتاريخ.

وهذه الروح لا تُنتزع بسهولة ممن فيه بقية خير وإخلاص، أمَّا من خرج ولم يعد فهو كالابن العاق ليس فيه خير لأهله مهما بلغ من العلم والجاه؛ ولأن مساحة المقال لا تتسع لنماذج أكثر، أُحيل القارئ الكريم لكتابات الدكتور محمد عمارة عن نفس رحلة الانتقال التي مر بها الدكتور طه حسين.

والخلاصة أن جيل المقلدين الذي تبع جيل الرواد، لم يتعبوا أنفسهم في البحث عن تحولات الرواد الفكرية، ووقفوا عند مراحلهم الأولى جهلًا أو عمدًا، بل أخفوا تلك التحولات عن قرائهم تمامًا، كما أخفوا الجانب النضالي الذي خاضه مثقف الغرب في جانب الحريات مقابل إبراز دورهم في إقصاء الدين، معظم جيل الرواد حاول العودة من التيه، وكان نجاحهم بدرجات متفاوتة.

فهل الأتباع والمقلدون عندهم نفس المؤهلات العلمية والشجاعة للبحث عن الخروج من التيه؟!

■■■

لماذا يهاجمون التراث؟

الحملة الجارية الآن لمهاجمة تراث الأمة والنيل من نجومها الساطعة في سماء الفقه، هو امتداد لخطة محكمة وضعها المحتل لم تنقطع فصولها على مدار مائتي عام.

وهدف المحتل قديمًا وحديثًا من هذه السياسية هو استعباد واسترقاق الأمة بوسيلة معنوية مرافقة لوسائله الحربية، هدفها الهزيمة النفسية للأمة من خلال تحقير تراثها: دينًا وثقافةً وتاريخًا ولغةً وعاداتٍ وتقاليد...

فإذا اقتنع جيل من الأمة أنه حقير، نظر للمحتل بانبهار وإعجاب، وتقبل العبودية والذل بكامل الرحب والسعة!، وكانت هذه خطة الغرب في كل البلاد التي احتلها، واعتمد في تنفيذ خطته على صناعة نخبة من أهل البلاد رباها على عينه، وأطلقها لتتولى التشكيك والاحتقار لتراث الأمة.

فوجدنا في مصر مادة يدرسها طلبة الجامعة المصرية عام 1925 يقوم بتدريسها طه حسين تحت عنوان (في الشعر الجاهلي) يقول فيها:(للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي..)!

يعني الأستاذ يتعامل مع النص القرآني بمنهج الشك الديكارتي الذي تعلمه من أساتذته المستشرقين، كما لو أن القرآن كتاب في الفلسفة.!

ووجدنا مقالًا في جريدة كوكب الشرق في العشرينيات يشكك في بلاغة القرآن بعنوان: (العثرات) يقول فيه الكاتب: إن قول العرب»القتل أنفى للقتل«

هو أبلغ من قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة: **179**)!

وتعدى الأمر إلى احتقار اللغة العربية والدعوة إلى استبدالها كلامًا وكتابة بالعامية.

ومن أعجب العجائب في هذا الشأن أن الأستاذ «أحمد لطفي السيد» الملقب بـ «أستاذ الجيل»، والذي كان أحد المناصرين للفكرة، أصبح رئيسًا لمجمع فؤاد الأول للغة العربية.!!

وجدير بالذكر أن الأديب البليغ «إبراهيم اليازجي» تم منعه من ترجمة الإنجيل بلغة عربية فصيحة بديلًا عن الترجمة العربية الركيكة المتداولة،

أما التاريخ فحدث ولا حرج، ففي الوقت الذي كان بعض كُتَّاب الغرب من أمثال «جوستاف لوبون» و«هونيكه» ينصفون تاريخ العرب والمسلمين، كان كُتَّابنا يختارون أكثر صفحات تاريخ الأمة قتامة ودموية؛ ليصبغوا به تاريخها كله.

وفي الوقت الذي كانت أوروبا تبحث عن نظام سياسي يجمعها كانت تلك النخبة تشوه (الخلافة) النظام السياسي الجامع للأمة.

وتستطيع أن ترصد دور الإعلام في تنفيذ الخطة، بازدراء الشيخ المعمم ومعلم اللغة العربية، والسخرية من اللغة العربية الفصحى، ومن عاداتنا وتقاليدنا، حتى صارت كلمة «فلاح»سُبَّة، وصارت كلمة «صعيدي» مجلبة للضحك والسخرية..

وصارت الراقصة مناضلة تساعد الثوار ضد الإنجليز، ومنظر الخمور مألوفًا، وكأنه جزء من الحياة اليومية للأسرة المصرية.!

هذه هي النتيجة المرجوة للخطة؟

هزيمة نفسية واحتقار للذات، وانبطاح كامل على أعتاب الغرب قادته تلك النخبة المصنوعة، فتجد طه حسين في كتاب (مستقبل الثقافة في مصر)

الصادر في منتصف الثلاثينيات يقول: «تستطيع أن تقول إن رقي الأفراد والجماعات في الحياة المادية مهما تختلف الطبقات عندنا، إنما هو حظها في الأخذ بأسلوب الحياة المادية الأوروبية»

وبشكل أكثر فجاجة وانبطاحًا يقول سلامة موسي:

(المصلح المثمر عندنا هو مقلد لأوروبا لاغِشّ في تقليده)!

ولا نجد أبلغ في الرد على هذا الانبطاح من رد الأستاذ مصطفي صادق الرافعي في مقال له تحت عنوان:(المرأة والميراث):

(وما هو الغش في التقليد؟ هو أن تستعمل رأيك وفكرك فتدع وتأخذ على بينة في الحالين..

ثم يسخر منه ويقول: معنى هذا إذا انقلبت أوروبا شيوعية أو إباحية وجب ألا نغش في التقليد، وإذا كانت الشمس لا تطلع ستة أشهر في بعض جهات أوروبا وتطلع في مصر كل يوم؛ وجب أن يكون المصري أعمى ستة أشهر...)!

نعود ونقول: إن هذا العواء والنباح الذي يملأ الفضاء نيلًا من تراث الأمة وأعلامها، ما هو إلا امتداد لخطة «تحقير الذات» بهدف الهزيمة النفسية للأمة؛ لإبقائها مستعبدة تابعة ذليلة.

ولكن من لطف الله على هذه الأمة، أنه ما من مرة يعلو فيها صوت خطة «تحقير الذات» إلا وقابلها صحوة «تحفيز الذات»، أي استنفار شرفاء الأمة للدفاع عن تراثها الممثل لعقيدتها وتاريخها وتقاليدها.

وكلمة أخيرة للأغرار الجهلاء الذين ملأوا الفضاء نباحًا وعواءً.

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا ... وآفته من الفهم السقيم

الليبرالية وأزمة المرجعية

أمام الليبراليِّين العرب معضلة كبيرة في مسألة المرجعية، فهم يرفضون المرجعية الإسلامية، ويريدون أن يستوردوا لبلادهم مرجعية معلبة من الخارج.

وهذا في حد ذاته يناقض المبدأ الليبرالي المجرد، فالليبرالية تقوم على حرية الشعوب في حكم نفسها، وأن الشعب هو مصدر السلطات.

وعليه، فإن الدساتير في كل الدول الليبرالية تستمد من إرادة الشعب، وتعبر عن ثقافة وهوية المجتمع؛ ولذلك يوجد فروقات بين دساتير أعرق الدول الديمقراطية، وكذلك القوانين تسن؛سدًّا لحاجات الشعوب وتلبية لضروراتها وحماية لمصالحها، ومن أهم حاجات الشعوب حماية عقائدها ومقدساتها ونظامها واحترام تقاليدها وآدابها، ومن هنا أيضًا يختلف القانون باختلاف الشعوب.

وذلك على الرغم من اتفاق جميع البشر على أن الدساتير والقوانين ونظم الحكم إنما وضعت لصالح البشر وحفظًا لحاجاتهم، بل والعمل على رفاهيتهم.

النموذج الغربي للمرجعية له خصوصية تتعلق بنظرة الغرب لنفسه على أنه الوارث الأصلي لفلسفة (أصالة الإنسان)، وتعتبر ذلك إرثًا بدأ من حضارة اليونان، ووصل إلى كماله النسبي في أوروبا المعاصرة عبر صراع طويل بين (عالم الآلهة وعالم الناس)؛ حيث يوجد منافسة وتضاد بينهما، وأن الآلهة هي قوى ضد الإنسان، وأن جميع جهودها تقوم على قهر الإنسان وتقييده؛ لأنها تخشى من وعي الإنسان وحريته واستقلاله وسيادته على الطبيعة، فهناك «بروميثوس»الذي أهدى النار الإلهية للإنسان، يختطف هذه النار من أيدي

الآلهة عند نومهم ويأتي بها إلى الأرض، ومن ثم تتسلط عليه الآلهة بأشد العذاب، بعد اكتشافها لفعلته النكراء بإهداء النار إلى أهل الأرض.

هذه هي الأساطير اليونانية التي شكلت وجدان الغرب فترة طويلة من الزمن.

ثم جاءت كاثوليكية القرون الوسطى؛ لتؤكد بممارساتها مبدأ التضاد بين السماء والأرض؛ حيث مارست سلطة القهر والاستبداد باسم الدين، وتحالفت مع قوى الإقطاع ضد تطلعات الشعوب المقهورة.

ومن هنا كان هتاف جماهير الثورة الفرنسية «لا نريد ربًّا ولا سيدًا» أي لا نريد كنيسة ولا إقطاعًا.

ومن ثمَّ نستطيع أن نتفهم الحساسية الشديدة لدى الإنسان الغربي من أن يكون الدين (أي دين) مرجعية تنظم الشئون العامة للناس، فيكيف للضدين في نظرهم.. أن يجتمعا؟ أصالة الإنسان وحريته، مع الدين المقيد لحركة الإنسان وحريته!!

إذا كان الوجدان الغربي تشكل عبر مئات السنين على هذه الفلسفة، فإن العقل المسلم تشكل على فلسفة مغايرة تمامًا.

فالدين عندنا يؤكد فلسفة أصالة الإنسان، بدءًا من خلقه وسجود الملائكة له تكريمًا من السماء لهذا المخلوق الأرضي، مرورًا بتسخير الكون كله لخدمة الإنسان، وسخر لكم ما في الأرض جميعًا منه» وصولًا إلى مقاصد الشريعة كما حددها العلماء وهي حفظ (النفس والدين والعقل والمال والنسل)، أيأن مصلحة الإنسان هي المحور الذي يدور حوله الشرع الإسلامي، وهذا الإرث هو الذي شكل وجدان الإنسان المسلم بعلاقة حميمية بينه وبين الله حتى وإن كان عاصيًا.

ومن هنا تستطيع أن تفهم ثورة وغضب مسلم عاصٍ قد تفوح رائحة

الخمر من فمه لوجود رسم كاريكاتيري يسخر من إلهه أو نبيه، وفي المقابل يستغرب الإنسان الغربي هذا الغضب في مسألة عادية جدًّا بالنسبة له.

أيها الليبراليون العرب، ومعظمكم من أصحاب الصوت العالي والوجاهة الحزبية أو الإعلامية ندعوكم إلى أن تحتكموا إلى ليبراليتكم، فالليبرالية لا تقبل أن تلبسوا شعوبكم ثوب شعب آخر رغمًا عنه، والليبرالية لا تقبل أن تتهموا شعوبكم بالجهل وعدم الوعي، والليبرالية لا تقبل بحال وصاية أقلية على صوت الأغلبية.

وتذكروا أن هذا الشعب المتهم من قبلكم هو من صنع ثورته، وضحى ومازال يضحي في سبيلها، ولم يعد قابلًا بحال أن يستبدل وصاية ديكتاتورية بوصاية تلبس ثوب الليبرالية.

■■■

جغرافية الكلمة

نعني بمصطلح جغرافية الكلمة، أن الكلمة قد يتغير مدلولها بتغير المكان، وسنبدأ بأبسط الأمور، وهو ما يقع في القطر الواحد، فقد يتغير مدلول الكلمة من محافظة إلى أخرى، أو من حضر إلى بدو أو ريف، فمثلًا كنا في الإسكندرية إذا أردنا ممن يجلس بجوارنا أن يفسح في المكان نقول «انزاح» وفي الريف يقولون لنفس الغرض «اتأخر»، فكنت حين أذهب للريف وأقول لمن بجواري «انزاح» يعتبرها إهانة، في حين أن للكلمتين مرجعية في اللغة العربية الفصحى الأولى من الإزاحة، والثانية من التأخر.

وإذا ذهبنا بعيدًا نجد أن الكلمة قد يتسع الخلاف في مدلولها بتغير البلاد والثقافات؛ حيث أن الكلمة هي نتاج لثقافة المجتمع.

يذكر الدكتور حسن وجيه في كتابه «علم التفاوض الاجتماعي والسياسي» أن الرئيس الراحل «أنور السادات» سأله صحفي أمريكي «هل تنتظر دعوة من الرئيس كارتر لزيارة الولايات قريبًا؟

فرد عليه السادات: "INVITED OR NOT INVITED I CAN GO AND MEET WITH CARTER"

يعني بالبلدي كده بالموروث الشعبي الذي عبر عنه شفيق جلال في أغنية «شيخ البلد»: الليلة دي من غير عزومة نتعزم.

طبعًا كان تعليق الصحفي الأمريكي حسب وصف الدكتور حسن «إن السادات يتسم بالعنجهية والجفاء».

فمفهوم الكلمة هو الابن الشرعي لثقافة المجتمع، وبرغم بساطة المفهوم، والذي يخلو من أيَّة عبقرية، إلا أن نفرًا من مثقفينا يريدون أن ينقلوا لنا كلمات معلبة جاهزة بغلاف المفهوم الغربي، وعلينا أن نأخذ بها كما هي ضاربين عرض الحائط بثقافة مجتمعنا.

ففي الوقت الذي لم يكتف الغرب بالدعاية لثقافته، بل استخدم الأمم المتحدة عبر إصدار مواثيق دولية تتبنى القيم الغربية من إطلاق الحريات الجنسية وإباحة الشذوذ، ومراعاة حقوق الشواذ في التعبير عن آرائهم حول الشذوذ، وحقهم في الحصول على شركاء مثلي الجنسية، واعتبار أن التركيز على عذرية الفتاة يعتبر كبتًا جنسيًّا وشكلًا من أشكال التمييز ضد الفتيات، كل هذا تحت عنوان كبير اسمه «حقوق الإنسان»

نجد أن 183 من منظمات حقوق الإنسان في مصر، ومعهم آخرين يعلنون رفضهم لمسودة الدستور المصري بعد ثورة يناير؛ لخلوها من نصوص تدل على التزام الدولة المصرية بالاتفاقات والمواثيق الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان، فهل يغيب عن مثقفينا هذا المعنى البسيط الذي بدأنا به المقال!؟

التفسير عندي يحتمل أحد احتمالين: إما أن طائفة منهم متيمة بحب الحضارة الغربية ومأخوذة ببريقها، لدرجة أعمتهم عن تاريخهم ودينهم وتقاليدهم، بل أصبحوا ينظرون لثقافتهم بشيء من الازدراء والامتهان،

وإما طائفة أخرى تمتهن تمثيل الغرب في بلادنا، ومهنتها مدفوعة الأجر عبر مؤسسات تلك الدول في بلادنا.

وأيًّا كان التفسير، فإن الخطورة بلغت ذروتها من محاولة الانتقال من مجرد الدعاية لثقافة الغرب إلى محاولة فرضها على المجتمع عبر الدستور،

ولا أدري لماذا الإصرار على شطب أي نص في الدستور يحافظ على دين وثقافة وعادات المجتمع المصري!؟

وهل لهذا علاقة بما قاله مؤخرًا- بعد سلسلة الانسحابات الجديدة- الفقيه الدستوري «ثروت بدوي» (هناك مخطط إسرائيلي أمريكي لتعطيل إصدار دستور للبلاد، وينفذ هذا المخطط عملاء بالداخل)؟

لست أدري!

■■■

طائر الحرية

منذ فجر التاريخ يحلم الإنسان بالطيران إلي السماء.

«عباس بن فرناس» اقتحم الحلم، نظر إلى السماء، وجد الطيور تخفق بأجنحتها في الهواء، صنع الجناح، صعد إلى أعلى الجبل، صعد معه إلى الجبل قوم شاركوه الحلم، تعلقت به آمالهم، شخصت إليه أبصارهم، انحبست معه أنفاسهم، وفي السفح قوم في دهشة ينظرون، كفًّا بكف يضربون، يتعجبون، يتساءلون: أي شيء في السماء يجعلكم بأرواحكم تضحون أيها المخبولون؟!

أفي سمائكم بقل، وفوم، وعدس، وبصل، ......، وطين؟!

أفي سمائكم ثور، ومحراث، وكرباج، وكوخ، وعجين؟!

أفي سمائكم قصور، ونساء ذوات قدٍّ يميل، وخصرٍ نحيل، وخد أسيل؟!

فلماذا إذًا تطيرون؟، وبحياتكم تغامرون؟، ولأرضكم تفارقون؟!

استعد «ابن فرناس» للقفز.

قفز..، اندكت عنقه، انكسر الجناح، والناس في السفح يهللون ويرقصون، ألم نقل لكم أيها المخبولون، في الأرض أمان واستقرار، في الأرض بقل، وفوم، وعدس، وبصل، .....، وطين!.

ألا تفهمون، ألا تتوبون، ألا في الحظيرة تدخلون؟!

أريحونا من خفق أجنحتكم، دعونا في هدوء ننعم بالطين والأمن والاستقرار، والموت البطيء... اللعين.

وفي الجبل حزن، وألم، وحرقة، ودموع.

بعضهم نزل إلى السفح حيث الطين والأمن والاستقرار والموت البطيء....اللعين، وبعضهم هزمه اليأس، وبعضهم شغله الجدل حول أخطاء التجربة، وبعضهم ظل فوق الجبل وأخذ الجناح المكسور، تعهده بالإصلاح والرعاية.

حمل الحلم من جديد، استعد لتكرار التجربة، ... وطار الإنسان.

وهكذا الأحلام..

الحلم فكرة لا تموت، عشق لا ينطفئ لهيبه، روح لا يخبو نورها.

يحمل الحلم قلة ممن يصعدون القمم، يحملون إيمانًا بالحلم، وإخلاصًا له، وتضحية في سبيله.

بحماس لا يفتر، وعزيمة لا تلين، وأمل في الله لا ينقطع. حتى يتحقق على أيديهم قدر الله النافذ.

■■■

حديث مع السامري

يا سامري، نشأت في ظلال النبوة، اختصك «موسى» عليه السلام بالرعاية، حباك الله بسابغ نعمه.

فنان موهوب أنت يا سامري، تنحت من الذهب عجلًا يموج بالحياة من دقته.

عالم أنت يا سامري: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ (طه: **96**).

شِيَم الصلاح بادية على محياك، تملك سحر الكلام وقوة التأثير، سخرت مواهبك في خدمة الرسالة فنلت الثقة والتقدير من قومك، ثم....

ثم هويت بقومك من ذرى التوحيد الذي كنت تدعوهم إليه، إلى مهاوي الشرك.

خنت الرسالة، ولم تصن عهد الرسول، سخرت مواهبك للتغرير بالبسطاء من قومك، وما زالت قصتك تتكرر، فأينما وجد الطمع والغدر والخيانة تجددت قصتك.

المحنة التي تمر بها بلادي أنبتت أمثالك يا سامري في كل شبر، أفسدوا الأرض، لوثوا الهواء.

عن أي من أمثالك أخبرك يا سامري؟

عن الشاعر الذي أبكاني وهو يتحدث عن حب الأوطان!

الذي حبب إلي النضال من أجل الحرية وهو يردد «من أغاني مانديلا»

صدقته- وهو يقول:

ثلاثون عامًا وسبع عجاف

يبيعون فيك.. ولا يخجلون

فلا تترك الفجر للسارقين

فعار على النيل ما يفعلون.

فحين قمت أسترد الفجر المسروق، حرَّض على قتلي!!

أم أخبرك عمن كان حديثه يملأ الفضاء، يشعرنا أن كل ذرة من كيانه تتحرك من فرط حماسته، وهو يحدثنا عن......... «صناعة الحياة»!!، وعندما جئنا نصنعها لم نجده بيننا!!!

أم أخبرك عن أصحاب العمائم واللحى، وأصحاب التيجان والصلبان!، أم أخبرك عن أمثالك من الساسة والإعلاميين، ممن نافسوك في مواهبك، وأدخلوا خوار عجلهم إلى كل بيت!؟.

هؤلاء جميعًا شاركوا في الترويج لعبادة العجل، أضلوا أقوامهم عن طريق الحرية، وهبطوا بهم إلى سفح العبودية والذل.

أيها السامري،

إن نهاية عجلك معلومة لدى المؤمنين: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ (طه: 97).

أما أنت، فسيلفظك المجتمع، ويلعنك التاريخ ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ (طه: 97).

حوار بين الابن الثائر وأبيه

يا أبي: لا تفرض زمانك على زماني، لا تفرض ماضيك على مستقبلي.

يا أبي: أنتم تجرعتم الهزيمة، ورقصتم لزعيم الهزيمة، سُرقت أوطانكم، سُلبت حرياتكم، انتهكت كرامتكم، وأنتم صامتون، تجرعتم كؤوس الجبن والخوف، بدءًا من حواديت الأم والجدة عن «أمنا الغولة» وتخويفكم «بالعسكري»وصولًا إلى حالة الخوف الجماعي: «الحيطان لها ودان» و«من خاف سَلِمْ».

كانت أقصى أمانيكم أن «تتمرغوا في تراب الميري»، بالخوف والقهر تنازلتم عن أعز ما يملكه إنسان، تنازلتم عن حريتكم، واختياركم.

زوروا الانتخابات، فجلستم في بيوتكم، وقلتم: «النتيجة معروفة»، منعوكم بالعساكر والبلطجية من الوصول للجان الانتخابات، فرجعتم، وقلتم: «البلد بلدهم»، فرضوا عليكم بالقهر اختيارهم، فتقبلتم وتنازلتم من أجل... «الاستقرار»، أخافوكم من التغيير، أرعبوكم من المجهول، اعتبروكم ركابًا لسفينة مخطوفة، هتف فيكم قرصانها «أنا أو الطوفان والفوضى»، فتقبلتم وتنازلتم من أجل...«الاستقرار».

بئس الاستقرار هذا الذي يسلبني آدميتي، بئس الاستقرار هذا الذي جعلكم نيامًا، والعالم يجري ويتقدم من حولكم.

عشتم زمانكم تلوكون بألسنتكم أفكارًا عظيمة عن الحرية، وجبنتم أن تضحوا في سبيلها، تتناقلون عن «العقاد» بإعجاب نظريته عن الجمال:

«الجمال هو الحرية» ثم يرضى العقاد أن يكون قلمه أسيرًا لرقابة عسكري من عساكر عبد الناصر، يمرر ما يشاء ويمنع ما يشاء، وأنتم شاهدون صامتون.

افهمني يا أبي: أنا شاب أريد صنع مستقبلي، أبحث عن تقرير مصيري بيدي، أتحمل مسئوليتي، أضع روحي على راحتي، أخوض في النار، أسير على الأشواك من أجل حريتي وكرامتي ومستقبل أمتي.

أفكاري وأفعالي صنوان، فأنا حلم «إبراهيم طوقان»

هـــو بـــالـــبـــاب واقـــفُ

والـــــــرَّدى مـــنـــه خـــائـــفُ

فـــاهـــدئـــي يـــاعـــواصـــفُ

خـــجـــلاً مِـــن جـــراءتِـــه

صـــامـــتٌ لـــــوْ تـــكـــلَّـــما

لَـــفَـــظَ الـــنَّـــارَ والـــدِّمـــا

قُـــلْ لمـــن عـــاب صـــمـــتَـــهُ

خُـــلِـــقَ الحـــزمُ أبـــكـــما

وأخـــو الحـــزم لم تـــزل

يـــدُهُ تـــسْـــبِـــقُ الـــفـــما

أنا كسرت قيودي، كشفت صدري للرصاص، شممت من غاز القنابل ملء رئتي، حملت رفيقي المدرَج في دمائه على كتفي، وقفت خلف القضبان، سخرت من السجن والسجان.

افهمني يا أبي: أنا لن أكون مثلك، أتسمعني؟!..: لن أكون مثلك، أنا لم أعد أقبل الهواء القادم من ماضيكم، هواؤكم يكتم أنفاسي، يخنقني، يجثم على صدري، لم أعد أطيق سلب حريتي وإرادتي.

أبي: إن أبيت إلا أن تفرض ماضيك على مستقبلي، فأنا آسف أن أقول لك: خذ ماضيك وارحل، أتسمعني.. ارحل، ارحل.

أما أنا، فأنا ماض في طريقي، ارقص أنت كما شئت، قل: نعم لمن شئت، فأنا ماضٍ في طريقي، لا عودة.. لا رجوع للوراء.

■■■

إلى أين تذهب يا يونس؟!

هل مللت مَن حولك من الناس؟..هل ترى أن إحسانك يُقابل بالإساءة؟، هل تريد لهم الرشد ويريدون لك الغواية؟، هل فكرت في اعتزال الناس؟، أو العيش معهم وكأنك لست منهم؟!، هل وصلت رؤيتك لهم كرؤية المتنبي لنفسه أنه ذهب وسط عالم من التراب..

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

سيدنا يونس فكر فيما تفكر فيه، يأس من أن يصلح قومه، رأى أنه استفرغ الجهد في نصحهم، وقابلوه بالجحود والنكران والإساءة، فذهب من بينهم مغاضبًا، وقرر أن يتركهم ويعتزل أهله وعشيرته، ركب البحر للمجهول، طمعًا في العزلة والبعد عن الناس.

إذًا أنت تريد العزلة يا يونس؟!..حسنًا.. خذ ما تريد وفوق ما تريد، سيبتلعك الحوت في البحر لتعيش في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، والبحر، وبطن الحوت.!

هل رضيت يا يونس؟.. ها أنت في عزلة لم يعشها أحد من قبلك.

لا، لا، لا.. أريد العودة للحياة، أين الناس!..

«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»

فاستجاب له ربه بعد أن علَّمه الدرس، وأرسله من جديد إلى مائة ألفٍ أو يزيدون؛ ليستأنف حياته وسط الناس، فجحيم عشرتهم وتحمل صدودهم، هو جنة إذا قيست بالعزلة.

هل وصلتك الرسالة يا من مللت الناس؟

الناس في أمثالهم الشعبية يقولون: «جنة من غير ناس ما تنداس»، مثل صادق يتماشى مع قول الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر: **47**).

نعم، ما قيمة جنة بغير إخوان وأصدقاء !

بل إن من أشد عذابات أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (الشعراء: **100 - 101**).

يااه..حتى أهل النار يتمنون الصديق !!

نعم: ما قيمة الحياة بغير علاقات إنسانية؟!

حتى طلب الخلد الذي أغوى آدم بالخروج من الجنة يرفضه أبو العلاء المعري إن كان ثمنه الوحدة:

ولو أني حُبيت الخلد فردًا لما أحببت بالخلد انفرادا

يا باحثًا عن الحب والصداقة، أطلق العنان لمشاعرك، وستجد حتمًا فيمن حولك من يستحق تلك المشاعر الصادقة.

يا رافعًا راية الإصلاح في قومك، أطلق العنان لطاقاتك، ولا تيأس من صدود الناس، وإياك والانسحاب، فأنت صاحب رسالة شعارها: «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله»

يا من تعمل في حاجة الناس، استمر في رسالتك، فأنت صاحب رسالة شعارها: «وما أسألكم عليه من أجر، إن أجري إلا على رب العالمين»

قسمة ونصيب

في يوم من الأيام التي تتكرر كثيرًا في حياة المهندسين (بطبيعة المهنة)، يوم كأن كل مشكلة فيه تنادي على أختها، حتى ادَّاركوا جميعًا فوق رأسي،

وطبيعة عمل المهندس تحتم عليه (إذا أراد النجاح) ألا يتهرب من مشاكل العمل، بل يواجهها ويحللها ويحاول علاجها.

كنت في هذا اليوم في طريقي لإحدى الجهات الحكومية لإنجاز معاملة خاصة، دخلت على الموظف وأنا مشغول بعلاج تلك المشاكل، وكان يتحدث على الهاتف، فأشار إلي بالجلوس.

موظف عتيق، نحيف الوجه، خط الزمان على وجهه النحيف أخاديد من التجاعيد، وترك له الزمان من ذكريات الصحة والشباب قليلًا من أسنان تعلوها صفرة مشوبة بسواد، كان الموظف الهمام يتحدث على الهاتف باهتمام مع (المدام)، حول طبخة اليوم ومقادير الإدام.

بدأ صاحبنا في الدخول إلى أدق تفاصيل الطبخة، ثم دخل على ملحقاتها من المقبلات والسلطات والحلويات، وبكل مشاعر اللذة بدأ يمصمص شفتيه، ويبلع ريقه، ويتلمظ بلسانه، وبلغ به الغرام والهيام بالطبخة المنتظرة من (المدام) حدًّا أنساه وجودي، فأسند ظهره للخلف- وهو يكاد يحتضن سماعة الهاتف: طيب يا حياتي متنسيش حاجة من اللي قولتلك عليهم.

وأنا جالس أمامه، أرهف له سمعي، شاخصًا إليه ببصري، أتمتم في سري

«ليت الله يرزقني بعضًا من فراغ بالك !»

أنجزت مهمتي، ودخلت سيارتي، أدرت المذياع كعادتي، انطلق صوت مذيع نشرة الأخبار: «قُتل اليوم في العراق..، بلغ عدد المشردين في سوريا..، تم الحكم بالإعدام في مصر على مجموعة...، تم اعتقال...، تم قصف».........

ما هذا يا رب؟ ما كل هذه الهموم؟ هل قدري أنني عربي؟! لماذا يا رب لم تخلقني سويديًّا أو نرويجيًّا؟!

رن الهاتف قاطعًا هذه الهواجس، وإذا بصوت أحد الأصدقاء، نبرات صوته تحمل فيضًا من البهجة والسرور، والغبطة والحبور، وبعد التحية انطلق سائلًا: إيه أخبار «الكريسماس»؟!

قتل.. تشريد.. إعدام.. اعتقال.. «كريسماس»!

لم أستوعب.

قلت له: أخبار «كريسماس» مين..؟! ده حد اتقتل النهارده، واللا اتحكم عليه بالإعدام واللا إيه؟

قال: إيه يا محمود!.. اصحي، بقولك «الكريسماس»- عيد الميلاد.. أنت مش معايا واللا إيه؟!

قلت: آه.. آسف، كنت سرحان، عندك حق «الكريسماس»، افتكرت..، هو أنت أخذت الجنسية النرويجية؟

قال: لاااه، أنت باين عليك فيك حاجة مش طبيعية النهاردة، نرويج إيه ياعم ؟!

قلت: آسف، عندك حق. ما دخل النرويج بموضوعنا! أنا أسف.

قال: ده أنا باتصل بيك أقولك إني مسافر أقضي الكريسماس، ده أنت لو تعرف أنا رايح فين، وحعمل إيه !

قلت: طيب يا صديقي، تروح وترجع بالسلامة، ربنا يهنيك.. أجازة سعيدة، إيه يارب الحكاية النهارده.

أنا أصبحت كالرجل «المُبَستر» أطلع من الفرن للثلاجة، ومن الثلاجة للفرن..

الثلاجة الأولى: فيها رجل انسحب من الكفاح في الحياة، ومبلغ لذته «لحسة» من طبق «المدام»

والثلاجة الثانية: فيها رجل انسحب من دنيا الناس، وعاش حدود ذاته، ومبلغ لذته لعب ولهو وعبث.

ألا ما أبرد تلك الثلاجات وأسخفها!

هل من الممكن أن يكون للحياة معنى وقيمة بغير كفاح وتعثر ونجاح وتغيير للأيام ؟!، هل من الممكن أن يكون للحياة معنى وقيمة إذا انحصر الإنسان في حدود ذاته، إذا عاش بلا رسالة، إذا فقد الإحساس والشعور، إذا فقد الألم والأمل؟!

ألا ما أوفاها قسمة، وأوفره نصيب لمن رزقه الله الإحساس والشعور والمسئولية والرسالة.

■■■

مصباح علاء الدين

كان لي صديق ظريف، جمعتنا ونحن في مرحلة الصبا جلسة مع كبار السن في الحي، فبادر هذا الصديق الظريف أحد كبار السن قائلًا: (عم «علي» لو أعطيتك مصباح علاء الدين، وفركته وطلعلك الجن، وقالك: شبيك لبيك عبدك وبين إيديك، ماذا تطلب منه ؟)

كان رد «عم علي» مفاجئًا ومضحكًا، قال: «حقوله، يا ابن..... سايبني العمر ده كله وجاي تطلع لي وأنا باقي لي خطوة على القبر، ارجع يا ابن... للفانوس وغور من وشي، خلاص ما بقيتش عايز حاجة من الدنيا»

عم علي أضرب عن الحلم، واكتفى بانتظار الموت؛ لأنه رأى في نفسه أنه وصل إلى سن لم يعد يصلح معها أحلام، ربما سمع «إيليا أبو ماضي» وهو يقول:

فما أسعد الإنسان في ساعة المنى   وما أجمل الأحلام في أول العمر

كنت أتمنى لعم علي، ولكل من توقف عن الحلم يأسًا من أن يغير واقعه، أن يتمتع بلحظة الحلم حتى وإن لم يتحقق، عملًا بقول الشاعر:

أمنية أن تكن حقًّا تكن أطيب المنى   وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدًا

ما قيمة الحياة يا عزيزي إن لم نطلق العنان لأحلامنا حتى آخر نفس من أنفاسنا، ميزة الإنسان عن سائر المخلوقات أنه دائمًا يحلم بعالم أفضل.

هل تذكر حلم البساط السحري؟، ظل الإنسان قرونًا عديدة يحلم بأن يطير في السماء، وبعد قرون تحول الحلم إلى حقيقة.

وهكذا سنة الحياة: «أحلام الأمس حقائق اليوم، وأحلام اليوم حقائق الغد»

هل تدري يا عزيزي أن أحلامك تعبير صادق عن مكنون ذاتك!!

فهذا إنسان حسود حقود يحلم بالضرر لغيره.

وهذا إنسان أناني يحصر أحلامه في حدود ذاته.

وهذا إنسان طيب حنون أحلامه في سعادة أسرته ومن حوله.

وهذا إنسان عظيم أحلامه في عزة قومه ورفعتهم.

وهذا إنسان وارث لرسالة الرسل أحلامه في هداية البشر، والأخذ بأيديهم لسعادة الدنيا والآخرة.

فمن أنت يا صديقي؟

أتركك لتجيب؛ لأن عندي حلم جديد، وأدعوك للحلم معي مستلهمًا كلمات الشاعر «عبد الرحمن الأبنودي»

لــــو مـــش هـتـحـلـم مـعـايـا
مـضـطـر أحـــلـــم بـنـفـسـي
لـكـنـي فـــي الـحـلـم حتى
عـمـري مـا هـاحـلـم لنفسي
لـــو كـنـت راح أفـتـش
عـــن مـنـصـب والـــلا جـاه
وأصـــاحـــب الـــحـــذر
ده أنا أبقى ما أستحقش الحياة
وضـــحـــكـــة الـــبـــشـــر
يـــا صـاحـبـي يـــا صـديـقـي
يـــا الـلـي طـريـقـك طـريـقـي
ده أنـا يـوم مـا أعـيـش لنفسي
ده يـــوم مــوتـــي الحقيقي

غربة داخل الوطن

شعور مؤلم وقاسٍ خلف نبرة اليأس في قول الإمام «أبو حامد الغزالي»

غَـزَلـتُ لـكـم غَــزْلًا دقيقًا فلمأَجِدْلغزلِينساجًافكسرتُمِغْزلِي

وخلف شعور الوحدة في قول "أبو فراس الحمداني"

غريبٌ وأهلي حيث ما كان ناظري وحيد وحولي من رجالي عصائبُ

وخلف غربة "المتنبي" في قوله:

أنــا في أمــة تـداركـهـا الله غــريـب كـصـالـح في ثـمـود

إنها الغربة الشعورية التي يشعر فيها الإنسان أنه وحيد غريب وإن كثر حوله الأهل، وإن أقلته أرض وطنه وأظلته سماؤه.

شعور ينفطر له القلب حين تتخيله في "جاليليو" الذي أمضى عمره في خدمة العلم بين المعامل والكتب، ثم يرى كُتبه تُحرق بأمر الكنيسة والجماهير ملتفة حول النار، يصفقون بحماس وحرارة فرحًا بالعلم الذي يُحرق، والخير الذي يحرمون أنفسهم منه.

شعور غربة الإنسان المحب للخير والفضيلة، حين يرى هرم القيم مقلوبًا في وطنه، فالحظوة والشهرة والأمن في بلاده للمنافقين والمتسلقين، بل للقتلة والمجرمين، ووسام الوطنية منزوع من الشرفاء موضوع على صدور الغواني والراقصات.

قيم مقلوبة تذوب لها النفس حين تعيش شعور "أبو العلاء المعري" وهو يعبر عنها أبلغ تعبير:

إذا وَصَفَ الطائيَّ بالبُخْلِ مادِرٌ وعَــيّرَ قُـسّـاً بالفَهاهةِ باقِلُ
وقال السُّهى للشمس أنْتِ خَفِيّةٌ وقال الدّجى يا صُبْحُ لونُكَ حائل
وطاوَلَتِ الأرضُ السّماءَ سَفاهَةً وفاخَرَتِ الشُّهْبُ الحَصَى والجَنادل
فيا مـوْتُ زُرْ إنّ الحياةَ ذَميمَةٌ ويا نَفْسُ جِدّي إنّ دهرَكِ هازِل

صاحب الحس المرهف حين يرى هذا الهرم القيمي المقلوب يقع بين أمرين (كما عبر أبو العلاء)، إما أن يضعف إيمانه ويفقد اتزانه النفسي وييأس ويقول "يا موت زر"، وإما أن يستجمع قوته ويستحضر رسالته، ويقول «يا نفسي جدِّي»

ولكن على من يقع اللوم، أمام فقدان وخسارة طائفة من أطهر من في الوطن يتم الدفع بهم دفعًا نحو اليأس والانزواء؟، وعلى من يقع اللوم إذا تحولوا من حالة اليأس والانزواء إلى حالة الكُرْه للزمان والمكان، بل والتحول للعنف والإيذاء؟، ولمصلحة من يتم رعاية وتغذية هذا الشعور من بهلوانات السياسة وأراجوزات الإعلام وأصحاب الكروش المنتفخة من المال الحرام؟

وكيف سيكون شكل المجتمع إذا انزوى فيه "حاتم" و"قس" وعلا على قمته "باقل" و"مادر"؟

وأي نهضة وتقدم يمكن أن نخدع بها أنفسنا في مجتمع على هذه الشاكلة؟!

■■■

لحظة الاختيار الحاسمة

الاختيار هو أرفع درجات الوجود الإنساني ومعنى الذات الإنسانية، وفلسفة وجودها، وهي الصفة الفريدة للإنسان من بين سائر المخلوقات، والتي من أجلها أسجد الله له الملائكة.

تسير حياتنا في خطوط مستقيمة، روتينية، رتيبة، نختار فيها اختيارات اعتيادية: الزوجة، السكن، العمل، .....

وتأتي منعطفات في حياة الإنسان، تخرجه من رتابة الخطوط المستقيمة في الحياة، لحظات حرجة، اختيارات صعبة تضع الإنسان أمام أسمى وأشق وأثقل وأوجع لحظات الوجود الإنساني، لحظة الاختيار بين: الحق والباطل.

لحظة اختيار تحدد مصير الإنسان بين الخيبة والفلاح.

هذه اللحظة لا تحسمها الحجج العقلية فحسب، بل تحتاج إلى إشراق روح، وصفاء قلب، ويقظة ضمير.

في تاريخ الدراما الإنسانية يظهر على مسرح الوجود، نماذج إنسانية نادرة يخرجها الله من بين عباده إخراجًا؛ لتقدم أروع وأنبل القيم الإنسانية.

ومن أنبل من ظهر على مسرح التاريخ مجسدًا لحظة الاختيار التي نتحدث عنها: «الحُرْ بن يزيد».

دراما إنسانية مكتملة الأركان، لو عكف عليها أعظم المؤلفين والفنانين ما استطاعت قرائحهم أن تبدع مثل هذه الشخصية ومجريات تلك اللحظة النادرة.

«الحر» كان قائدًا حربيًّا تحت إمرة «عمر بن سعد» قائد جيش يزيد بن معاوية ضد سيدنا «الحسين بن علي».

قائد في جيش قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل يمثلون سلطة الدولة، أمام عشرات يمثلون سلطة الحق.

مائة ألف خرجوا لمقاتلة سبط رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تسوقهم فتاوى السلطان، والدعاية الكاذبة، والطمع الرخيص.

أجساد متشابهة، فاقدة الوعي، مسلوبة الإرادة، مجرد أدوات في يد طاغية يحركها، منهم من رضي أن يكون نعلًا في قدمه، أو سيفًا في يده، أو حتى عالم أو شاعر رضي أن يكون وسامًا على صدر الطاغية:

لا فرق..نعل، سيف، وسام، .. لا فرق.. كلهم أتباع وأذناب، أجساد بلا أرواح، وجود بلا ماهية، أشباح بلا إنسانية.

كل هؤلاء أمام عشرات يمثلون أروع وأنبل قيم التضحية والفداء لنصرة الحق.

هنا لُبُّ الصراع واللحظة الحاسمة في الاختيار:

أكون مع الكثرة التي ستغلب آنيًّا بعدتها وعتادها لا محالة، مع الطمع في الإمارة والحظوة عند السلطان..أكون مع الباطل؟

أم أكون مع القلة المؤمنة، مع الحسين، مع الفئة التي ستكون عاجلًا بين قتيل أو أسير، .. أكون مع الحق؟

ولماذا هذا أو ذاك؟، لماذا لا أنسحب في الظلام، أتوارى خلف ظلي، أكون على الحياد، حيث المنطقة الدافئة: أخذل الحق، ولا أنصر الباطل، أتعامى عن

دماء الأبرياء، أصم أذني عن أنات الثكالى والجرحى والمعذبين، أتقوقع على نفسي، أخدعها ببعض أحاديث الفتن، أستدعي كل نصوص الخذلان من أفواه علماء السلطان، لا فرق بين أن أخدر نفسي بالشهوات والأفيون، أو بالحجج الباطلة ومظاهر العبادة الجوفاء، المهم أغيب عن الوعي، وأهرب من تكاليف حمل الرسالة!!.

وقف حائرًا مترددًا بين الطرق الثلاثة المعروفة: «نصرة الحق- نصرة الباطل- الحياد»

أشرقت الروح، صفا القلب، استيقظ الضمير، أطلق العنان لفرسه، لم يلتفت وراءه، لم يلوي على أحد.

انتقل من أمير في جيش يزيد إلى جندي في صف سيدنا الحسين، انتقل من الأرض إلى السماء، وما هي إلا لحظات وبدأت المعركة، والتحم جيش الباطل مع أهل الحق، وتعفر وجه «الح» في التراب، وسالت منه الدماء، وارتفعت الروح حيث مستودع أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في السماء.

أيها الإنسان في كل عصر وآن، وجودك يتحقق بالولادة، تتشابه فيها مع كل الخلق، أما ذاتيتك، ماهيتك، إنسانيتك، ... فتتحقق بالاختيار.

ومن عجيب صنع الله لهذا النجم في سماء الإنسانية، أن ألهم الله أمه أن تسميه:

«الحُرّ»

قلوبنا معكم، وسيوفنا عليكم

«قلوبنا معكم، وسيوفنا مع بني أمية»

أي مستوى من التناقض هذا الذي يحمله الإنسان!

لا تتعجب، إنه الصراع الدائم في حياة كل إنسان بين المبادئ والمصالح.

الإنسان السوي يتمنى انتصار المبادئ، ولكنه يضعف أمام التضحية في سبيل المبادئ.

نحن هنا لن نتحدث عن المفسدين والقتلة والمجرمين، كلا.

سنتحدث عن عشاق الفضيلة وأصحاب المبادئ، هم أناس طيبون حولنا يكرهون الفساد ويتمنون الخير، يصدمنا فيهم أنهم يحبون المبادئ ويدوسونها بالأحذية، ويعشقون الفضيلة ويمهدون الطريق لسيادة الرذيلة!

هذا النموذج مثير للفكر والتأمل ومحاولة الفهم.

وأي مصلحة هذه التي تجعلهم يضحون بالمبادئ وهم ليسوا سُرَّاقًا ولا مرتشين ولا منتفعين؟

إنها يا عزيزي في حدها الأدنى.. إيثار السلامة.

فمناصرة المبادئ وطلب الحقوق يلزمه تضحية بالحياة والأمن والاستقرار والمال، وهم ليسوا من هذا الصنف، فهم كمن وصفهم الله تعالي ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ ﴾ (القصص: **57**) فهؤلاء يعرفون أن النبي ﷺ معه الهدى، ولكنهم آثروا الاستقرار الموهوم.

ومن عجيب أمر هذا الصنف من البشر أنه لا يملك شجاعة مواجهة

النفس، فهؤلاء عندهم لكل تضحية بمبدأ مبرر، وسند يعفيهم من ألم مواجهة النفس بجبنها وتقصيرها، فسلامته الشخصية يغلفها بغلاف استقرار الوطن، وتجارته ووظيفته بغلاف «العجلة تمشي»

ولكن على أي مبدأ يستقر الوطن وتمشي العجلة؟ هل على رقاب الناس وتكميم الأفواه ومطاردة العلماء والشرفاء؟!

هذا هو السؤال الذي لا يسأله لنفسه؛ لأنه لا يملك شجاعة المواجهة مع النفس؟

هذا الشخص قد يصل به الحال (وهو المحب للمبادئ والفضائل) إلى كراهية أصحاب المبادئ والبعد عن متابعة صمودهم وجهادهم؛ لأن رؤيتهم تكشف له ضعفه وجبنه.

هذه محاولة لفهم هؤلاء الطيبين الذين نحبهم، ولا نستطيع أن نلتمس لهم عذرًا؛ لأن الله حين كلف الإنسان بمناصرة الحق لم يكلفه إلا بمقدور- أي بشيء يقدر على فعله لو أراد- وكذلك لأنه كان بمقدورهم على أقل تقدير أن يصمتوا، وألا يجعلوا ظهورهم مركبًا للطغاة الظالمين.

وكذلك لأنه كان بمقدورهم كفَّ سيوفهم عن أناس أمثالهم من لحم ودم، وقد يملكون من الإمكانات المادية أضعاف ما يملك هؤلاء، وكان باستطاعتهم أن يعيشوا في رغد من العيش، ولكنهم ضحوا بمصالحهم من أجل مبادئهم.

هؤلاء الأطهار اصطفاهم الله من بين خلقه؛ ليكونوا وقودًا لنور شعلة المبادئ والفضيلة بين الناس.

فهؤلاء ينطبق عليهم وصف الأديب الراحل «مصطفى صادق الرافعي»: إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قمح هذه الإنسانية: ينبتون ويحصدون، ويُعجنون ويُخبزون؛ ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائلها.

لا تقتلوا هابيل

بسذاجة الطفولة وبراءتها كنت أتصور وأنا طفل أن «قابيل» هو المقتول المظلوم، و»هابيل» هو القاتل الظالم.

لماذا؟.. لأني رأيت الناس يسمون أبناءهم باسم «قابيل»!.

وحين كبرت وعلمت أن «قابيل» هو القاتل، ظل السؤال يلح عليَّ: لماذا يا ابن آدم ترفع ذكر أخاك القاتل وتمجده، وتضع أخاك المقتول المظلوم في زوايا الإهمال والنسيان؟!

إن هابيل وقابيل ليسا مجرد ولدي آدم، لكنهما فرعا نهر شق تاريخ البشرية.

فرع يحمل قيم «هابيل»: الخير، والرضا، والقناعة، وعمارة الأرض.

وفرع يحمل قيم «قابيل»: الشر، والحسد، والغدر، والإفساد في الأرض.

والأمم في طريقها نحو التحضر سنت القوانين التي تحمي «هابيل» وقيمه، وردع «قابيل» وقيمه.

وبقدر علو قيم «هابيل» في المجتمع بقدر رُقيه في سلم الحضارة، أما حين يكون مكان «هابيل» في مجتمعه القتل والسجن والتشريد، وحين يكون «هابيل» هو الحائط المائل في المجتمع، يُضرب ويُشتم ويُقصى، وحين ترى «قابيل» وقبيلته يريدون من «هابيل» أن يتلقى الصفعات صامتًا، ويلومونه- وهو المشهور بينهم بعفة اللسان- حين يدعم أو ينشر أو حتى يفرح بسب «قابيل».

وحين يُرفع «قابيل» على الأكتاف وتهتف باسمه الحناجر...

فاعلم أنك أمام ردة نحو شريعة الغاب وانهيار القيم.

أيها السائرون نيامًا خلف «قابيل» وقبيلته.

أيها السكارى على أنخاب أنات الثكالى والمعذبين.

أيها الراقصون على طبول الحقد والكراهية.

أنتم سائرون في طريق انتحار جماعي للقيم والفضيلة.

طريقٌ.. الكل فيه خاسرون، ... أدركوا أنفسكم...

لا تشاركوا في قتل «هابيل» فتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

■■■

الحياد خيانة للحق

شكسبير في مسرحية «هاملت» يصور صراعًا بين الحق والباطل، بين الملك «كلوديوس» مغتصب السلطة وبين «هاملت» صاحب الحق الشرعي في السلطة، صراع بين الغدر والخيانة والقتل، وبين الشرف والنبل والشهامة.

في هذا الصراع المحتدم تظهر شخصية "أوليفيا"، فتاة شقراء جميلة رقيقة وادعة هادئة، أحبها "هاملت"

تلك الفتاة تمثل شخصية محورية في المسرحية، فإذا كان "هاملت" يمثل اللون الأبيض الناصع، والملك "كلوديوس" يمثل اللون الأسود، فـ"أوليفيا" تمثل اللون الرمادي.

ببراعة شكسبير في تحليل شخصياته أراد أن يبرهن من خلال تلك الشخصية الرمادية، أن الحياد في معركة الحق والباطل أمر مستحيل، وأن الباطل لا بد أن يستفيد من المحايد ويوظفه، ويستميله ولو لبعض الوقت، وفي بعض المواقف وهذا ما حدث بالفعل في هذا الصراع.

فقد نجح الباطل في استمالة "أوليفيا" إليه واستغلالها في التجسس على "هاملت"

وألمح "شكسبير" إلى أنها لم تكن مغفلة أو بريئة، فقد تعمدت أن يراها "هاملت" وهي تقرأ في الكتاب المقدس إمعانًا في خداعه، وهو بدوره بلع الطُعم وطلب منها أن تذكره في صلاتها.

ثم يغوص شكسبير داخل هذه الشخصية الرمادية الباهتة، وهي تائهة بين الحق والباطل، بل وتستغرب هذا العداء بين الطرفين، برغم أنها تعلم تمامًا نبل وشرف "هاملت" وسمعت بأذنيها الملك "كلوديوس" وهو يحدث نفسه بأنه قتل أخاه (والد هاملت)، أدرك "هاملت" أن الباطل استمال "أوليفيا" ووظفها لصالحه، فأراد أن يوقظها وينقذها من براثن الباطل، بكلمات قوية ومعبرة.. ولكنه يفشل في إنقاذها لأنها ببساطة.. لا تدرك أنها غارقة في وحل الباطل.!!

ثم يأتي ختام المسرحية وخشبة المسرح عليها جثث القتلى، فقد تمكن هاملت من الثأر لأبيه، وقتل عمه الملك، وقبله قتل والد أوليفيا وأخاها، أمَّا الإبداع كله فهو غرق "أوليفيا" بعيدًا عن خشبة المسرح.

فلا مكان لهذه الشخصية الرمادية الباهتة التافهة على خشبة المسرح!!

وتبقى الخلاصة.. أن المحايدين هم الكنز الاستراتيجي للباطل، يعرف كيف يستميلهم إليه، ويوظفهم ضد الحق في الوقت المناسب والظرف المناسب، ليطعنوا الحق بخنجر في الظهر، أثناء انشغاله بتوقي ضربات الباطل في الصدر، ثم يتوارون مرة أخرى خلف مسرح الأحداث منبوذين في الكواليس.!!

هذه كانت قراءتي الخاصة لحدث درامي مستفيدًا من رأي الأديبة "صافيناز كاظم"

■■■

قطيع.. مستجيب مطاوع متجانس

في كتابه «قيم من التراث» يروي الدكتور الراحل "زكي نجيب محمود" تجربة له مع لجنة تم تشكيلها في منتصف الخمسينيات كان هو أحد أعضائها في مهمة وضع مقرر دراسي يستهدف تكوين المواطن الصالح، فوجد في بداية الجلسة الأولى مذكرة أمام الأعضاء تحدد لهم سلفًا تعريف المواطن الصالح: "مستجيبًا، مطاوعًا، متجانسًا في فكره وسلوكه مع مجموعة المواطنين"، علق الأستاذ على هذا التعريف (طبعًا ليس داخل اللجنة ولكن بعدها بعشرات السنين) قائلًا: " كان المراد هو أن يكون المواطن الصالح مفتوح الأذنين أبكم اللسان"، وهو تعبير معدل لوصف "القطيع".

ويدور الزمن دورته، والثور ما زال يدور بساقيته مغمض العينين في حركة دائرية، يعود فيها مع كل دورة من المكان الذي ارتحل إليه إلى المكان الذي ارتحل منه.

وبتاريخ 2014/8/4 يقر المجلس الأعلى للثقافة برئاسة د/ جابر عصفور وزير الثقافة ورقة عمل اللجنة المشكلة برئاسة الأستاذ "سيد ياسين" وعضوية كل من:" محمد سلماوي- صلاح عيسى- ليلى تكلا- جمال غيطاس..." لوضع السياسة الثقافية للوزارة.

وقد جاء تعريف السياسة الثقافية في الورقة المذكورة كما يلي:" هي التي توجه الجوانب الثقافية اللامادية في المجتمع: المعتقدات، الفكر، الرأي،

الفن، الأدب، القيم، العادات، التقاليد.... بهدف تحقيق أهداف وغايات تتفق وتوجهات الدولة الأيديولوجية."!!

بين الأمس واليوم: نفس العقلية.. نفس السياسة.. نفس المنتج.. نفس الدورة في ذات الساقية.

بالأمس كنا نستهدي بالاشتراكية والشيوعية، ونقدس ماركس ولينين، ويقول أحد مفكرينا في موت "ستالين" ما قاله سيدنا أبو بكر في وفاة النبي ﷺ: "طبت حيًّا وميتًا"

والعقاد الذي وقف في البرلمان عام 1930 زمن الملك فؤاد يقول: إن المجلس سيحطم أكبر رأس في البلاد إذا تم المساس بالدستور "يرضي في الخمسينيات والستينيات ومعه طه حسين وتوفيق الحكيم (باعتراف توفيق الحكيم في كتابه عودة الوعي) برقابة عسكري على ما يكتب في الصحف الحكومية، ومازال على ذات الدرب يسير معظم الكتاب والأدباء والشعراء كي يجدوا لهم مكانًا في دولة.. المواطن الصالح فيها هو: (مستجيب- مطاوع- متجانس)!! متوافق مع التوجهات الأيديولوجية للدولة.!

وذلك لتحقيق المجتمع الاشتراكي الذي يفقد فيه الإنسان فرديته وذاتيته ليصبح ترسًا في آلة مجتمع تحدد له الدولة معتقداته وفنه وأدبه وقيمه.

مجتمع تعبر عنه النكتة السياسية المصرية:

مواطن يسأل عبد الناصر: ما معنى الاشتراكية؟

فقال عبد الناصر: الاشتراكية.. الكفاية والعدل.

قال المواطن: وما معنى الكفاية والعدل؟

فأجاب ناصر: يعني نكفيكوا كده تنكفوا، ونعدلكوا كده تنعدلوا.!!"

ارجع يا عزيزي إلى أسماء لجنة وضع السياسة الثقافية المُشَكلة في 2014، ستجد تلك الأسماء هم شوك من شجر السدر الذي نبت في حقبة الخمسينيات والستينيات، لتظل حركتنا دائرية مغلقة كحركة الثور المُغمض العينين في الساقية.

وبهذا المعيار، يتحول مواطن أسعد الملايين من عشاق كرة القدم وأهدى بلاده العديد من الانتصارات، إلى مواطن منبوذ محاصر إعلاميًّا وماليًّا؛ لأنه خرج على التوجهات الأيديولوجية للدولة، ولم يعد (مستجيبًا- مطاوعًا- متجانسًا).

أي لأنه تجرأ وتمرد وفارق القطيع، وحلق خارج السرب، ونزع العصابة عن عينيه وأبى أن يدور في الساقية.!!

■■■

أتعبدون ما تنحتون؟!

باسم «تجديد الخطاب الديني» جاري نحت معبود جديد بمعالم وملامح جديدة.

فقد التقت إرادة العلمانيون والسلطة السياسية على تجديد الخطاب الديني، والمقصود بالدين هنا هو الإسلام حصرًا بطبيعة المرحلة.

وقد وجد العلمانيون الفرصة مواتية لتصدر مشهد هذا التجديد وإقصاء كافة الأطراف بما فيهم الأزهر، فوزير الثقافة الأسبق "جابر عصفور" في مقال بالأهرام بتاريخ 2015/ 5/ 21 يقول نصًّا:

" العقول المتفتحة أندر من الكبريت الأحمر في الأزهر، فالغالب على علمائه التقليد، ولذلك يصعب عليهم أخذ قضية تجديد الخطاب الديني الذي يطالبهم به رئيس الجمهورية مأخذًا جادًّا مستجيبًا. "

وقبله بيوم واحد في ذات الجريدة اتهم "أحمد عبد المعطي حجازي" علماء الأزهر بتجاهل دعوة القيادة السياسية لأنهم(بصفتهم سدنة الماضي المستفيدون من خطابه الديني المتخلف يصعب عليهم معارضته).!!

إذًا، من سيقوم بتجديد الخطاب الديني، ونحت المعبود الجديد؟

هم: العلمانيون بدعم من السلطة السياسية.

وبمعرفة النحاتين؛ تستطيع بسهولة أن تكتشف معالم الصنم الجديد.

فالسلطة السياسية عبر التاريخ وعلى اتساع جغرافية العالم وحتى منهم من حكم باسم الإسلام- إلا ماندر-تسعى لتحديد مفهوم للدين يساعد على تدجين الشعوب وإدخالها إلى حظيرة الطاعة للسلطة الزمنية.

وأما النخبة العلمانية في بلادنا فإنها ترى الدين بعين أوروبية كنسية، تقوم

على تنحية الدين عن الحياة، واعتباره علاقة خاصة بين العبد وربه، ولا شأن له بالمجتمع ولو حتى في الجانب الخلقي الذي يوجه سلوكه.

ومن المفارقات أن العلمانيين الذين يرون الدين أحد أهم أسباب تخلفنا، لاتجدهم يهاجمون شطحات الصوفية ولا خرافاتها، ولا تجد السلطة منعت للصوفية مولدًا أو أخلت لهم سرادقًا.!!

لأن الصوفية المغشوشة (مع إيماني أن للصوفية معني ساميًا) تخدر الجماهير بالطبل والزمر، وتعتبر الفقر والجهل والظلم والقهر.. قضاء وقدر، وخير للمحرومين أن يتركوا دنيا قيصر لقيصر انتظارًا لجنة الفقراء الموعودة.

إن السلطة الزمنية وأتباعها يبحثون دائمًا عن دين "هامان"، ويعادون دائمًا دين "موسى" المتمرد على الظلم والطغيان.

فهم لن يضعوا في تصورهم أبدًا الصورة الحقيقية لدين الإسلام الذي يدفع أتباعه ليكونوا طاقة إيجابية، دافعة للخير محاربة للظلم والفساد، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، طاقة ترسي قواعد الأخوة والعدالة والمساواة. بل وتقديم المجتمع النموذجي العملي لرسالة عالمية خالدة.

إنهم لايدعون إلى الإلحاد والزندقة-لاسمح الله- وإنما يفكرون بنفس عقلية (وليس عقيدة) كفار قريش، ينحتون معبودًا جديدًا ليواجهوا ويميعوا به دين الحق.

نعلم أن القائمين علي نحت المعبود الجديد يملكون أدوات التعليم والإعلام والثقافة اللازمة لنحت معبودهم، ولكن رب موسى موجود، وسيأتي موسى ولو من حِجْر فرعون؛ ليقول لكل سامري:

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾

وستعلو صيحة الوعي تردد:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ (الكافرون: **6**).

العلمانيون العرب.. بين الرأس والقبعة

ما عانيناه من أدعياء العلمانية في بلادنا من تناقض تام بين أفعالهم وشعاراتهم، يستدعي التأمل في فك شفرة هذه العقلية، وهذا المقال محاولة في هذا الشأن.

(وأعتذر مقدمًا عن التعميم الذي قد ينال بعض النماذج الشاذة عن الأصل العام، وأدعوهم إلى إثبات تمسكهم بالمبادئ العلمانية)

أتصور العقل العلماني العربي مركبًا من قبعة غربية على رأس شرقي.

القبعة الغربية تشكل نسيجها من عُقَد أبرزها عقدة الدين، فالدين في العقلية الغربية شكلته الأساطير اليونانية على أنه صراع بين عالم الآلهة وعالم الناس، صراع بين الإله «زيوس» ونظيره «بروميثيوس»، «زيوس» يكتشف أن «بروميثيوس» خطف سر النار، وأهداه إلى بني البشر وفتح لهم طريقًا للنور والمعرفة والخير، فكان جزاؤه الصلب وترك جسده تنهشه الطيور الجارحة، ثم جاءت كنيسة العصور الوسطى لتمارس نفس الدور ضد عالم الإنسان فتحرمه المعرفة والعلم، وتقيم المحاكم لمن يخرج عن التفسير الكوني للكنيسة.

ورأي الإنسان الغربي المعدم المحروم «بابا الكنيسة» بصولجانه وقلنسوته وتاجه الذهبي وحاشيته وملكوته، يدعوه إلى الفقر والحرمان انتظارًا للجنة الموعودة للفقراء والمحرومين.!!

إذًا، ما الفرق بين الإله الذي تبشر به الكنيسة وبين «زيوس»؟!

والعقدة الثانية هي عالمية البابا التي طغت على الوطنية والقومية للأجناس الأوروبية، بل وفرضت اللغة اللاتينية كلغة مقدسة.

والعقدة الثالثة هي عقدة المرأة التي بدأت من أسطورة «باندورا» الإغريقية، وتأصلت كأسطورة دينية جعلت «حواء» هي سبب خروج «آدم» من الجنة، وتطورت لأبحاث لاهوتية وممارسات كنسية شاذة.

هذه العقد شكلت نسيج العقل الغربي الذي لبس قبعته العلماني العربي، وليت العلماني العربي انتفع بهذا النسيج الذي أثمر في موطنه حرية وديمقراطية وعدالة ومساواة، ولكن المأساة أنه احتفظ تحت هذه القبعة برأس حوى أسوأ مافي الموروث الشرقي من ديكتاتورية وعنصرية وتمييز وإقصاء وضيق بالرأي الآخر، فأنتج لنا هذا الخليط العجيب من عُقد العقلية الغربية ضد الدين وأسوأ مافي موروثات العقل الشرقي.

فالعقل العلماني العربي يعاني من انفصام بين القبعة والرأس أنبتت أمراضًا نفسية، رأينا آثارها في هذا الكره المتأصل تجاه من يخالفه في الرأي ممن يرى أن الإسلام يختلف عن غيره في أنه دين للأَحياء والحياة، وليس فقط دينًا للأموات والآخرة.

وتفرع عن هذا الكُره تخليه عن كل المبادئ العلمانية الغربية، ومارس ضد خصومه أبشع أنواع التمييز والإقصاء.

إنه حقًّا مرض نفسي ناشئ عن صراع بين القبعة والرأس، ولك أن تتخيل مدى تأصل هذا المرض النفسي في سلوكه وموقفه تجاه من يراجعون مواقفهم من أساتذة العلمانيين أنفسهم، فتجد مقالًا في الأهرام بعنوان «أسلمة طه حسين» يلطم فيه الكاتب العلماني، ويصرخ ضد تلك الدراسات التي تثبت

التحولات الفكرية لطه حسين في أخريات حياته.!!

وتجد «غالي شكري» يكيل الاتهامات والتسفيه للدكتور «زكي نجيب محمود» لمجرد أنه كتب كتابًا أسماه «الشرق الفنان» ينصف به الشرق بعض الإنصاف.!!

نحن قصرنا حديثنا علي الشق الليبرالي من العلمانيين العرب، أما الشق اليساري، فهؤلاء قبعتهم ملؤها العقارب والثعابين السامة، تجيد حبك المؤامرات وفنون التجسس ونفث سموم الحقد والكراهية أينما حلوا.

ومن عجيب الأكدار فيما حولنا من أمصار، أن هذه العقلية لغلاة العلمانيين هي التي تتحدث عن التطرف الإسلامي والإرهاب الإسلامي، بل وتتصدر مشهد تجديد الخطاب الإسلامي؟!

وعليه، فمن الواجب أن نطالب بضرورة تجديد وإعادة تأهيل وتشغيل العقل العلماني.

■■■

النوم على نغمة الاستقرار

ثلاثون عامًا والإعلام يروج لحكم «مبارك» ببضاعة «الاستقرار»، وفجأة قامت ثورة، وذابت أجهزة الأمن، وتبخرت أكذوبة «الاستقرار»؛ لأنه استقرار مزيف، وإن شئت الدقة والوصف الواقعي لما عاشه عالمنا العربي خلال العقود الماضية فإنه «جمود» وليس استقرار؛ لذلك تبخر في لحظة واكتشف الناس أنهم ضحوا بصحتهم وتعليمهم وتقدمهم.. وحريتهم.. من أجل زيف أسموه «الاستقرار».

فالاستقرار يتحقق ببناء دولة المؤسسات وليست دولة الزعيم.

دولة سيادة القانون والعدالة والمساواة، دولة التنمية والتقدم.

وتجربتنا ليست التجربة الوحيدة، فالكتلة الشرقية بقيادة الاتحاد السوفيتي ضحت بحريتها، وعبدت الزعيم، وقبلت الظلم والقتل والتهجير والسجن، ومعسكرات العمل بالسخرة، وتأميم الممتلكات لصالح التعاونيات الزراعية، على اعتبار أن تلك التضحيات ضرورية من أجل البناء والرخاء والاستقرار، ثم استفاقت هي الأخرى وكسرت تماثيل الزعيم ومزقت صوره ولعنت ماضيها.

وعلى الضفة الأخرى من العالم كانت أمة جديدة تتهيأ لقيادة العالم، تكونت من مجموعة من المهاجرين، طبيعتهم حب المغامرة والطموح، رسم لهم أحد روادهم المؤسسين «بنجامين فرانكلين» الطريق قائلًا: «إن الذي يفرط في مبادئ الحرية وجوهرها ليشتري به قدرًا تافهًا من الاستقرار، لا يستحق الحرية ولا الاستقرار»

وهذا فعلًا ما رأيناه بأعيننا، فالذين ضحوا بحريتهم من أجل الاستقرار خسروا الأولى ولم يكسبوا الثانية.

وما زالت نغمة «الجمود» المسمى- زورًا -"استقرارًا» تلقى ترحيبًا واسعًا من شعب ورث ثقافة «إن فاتك الميري اتمرمغ في ترابه»، فما زالت تلك الصورة النمطية لرب الأسرة العائد ظهرًا لبيته حاملًا بطيخة في يد وجريدة في يدٍ أخرى، ينتظر راتبه أول كل شهر، ومعاشه بعد الستين هو من يتلقى ويروج للجمود، استبدل الجريدة بعلم يلوح به أمام اللجان، والبطيخة بحجر يرميه على طُلاب الحرية.

■■■

بالكلمة لا بالسيف.. يُصنع التاريخ

النمرود بملكه وسطوته وجبروته لم يصنع تاريخًا، وسيدنا إبراهيم بمفرده صنع التاريخ برسالته.

فرعون بملكه وجنوده وسحرته وهامانه وقارونه لم يصنع تاريخًا، وسيدنا موسى الهارب المطارد الأعزل صنع التاريخ برسالته.

افتحوا صفحات التاريخ، وراجعوا الصراع بين الكلمة والسيف، فستجدون قاعدة راسخة مفادها: أن السيف قد ينتصر على الكلمة مؤقتًا، ولكن الغلبة في النهاية للكلمة، والديمومة لها، وصناعة التاريخ بها.

كلمة إبراهيم علت سيف النمرود، وكلمة موسى علت سيف فرعون، وكلمة الحسين علت سيف يزيد....

وإذا كان لا بد للحق من قوة تحميه، وللكلمة من سيف يحميها، فقد يتأخر السيفحتى تنضج الكلمة وترسخ وتنتشر ويبلغ أتباعها سن الرشد بالاختبار والتجربة والتمحيص.

فكلمة سيدنا موسى حماها سيف داود.. بعد حين.

وكلمة سيدنا المسيح حماها سيف قسطنطين.. بعد حين.

وكلمة سيدنا محمد حماها سيف محمد.. بعد حين.

ولكن سيف البطش والطغيان لا تحميه ملايين الكلمات الزائفة.

فسيف «هتلر» لم تحمه كلمات «جوبلر»

وسيف «عبد الناصر» لم تحمه كلمات (صوت العرب)

والتاريخ لا يصنعه من يعيشون أسرى لحظتهم الزمنية، وواقعهم المؤلم..لا يصنعه من ينظرون تحت أقدامهم، ولا يتجاوز بصرهم أنوفهم، بل يصنعه أصحاب رؤية ورسالة يخرقون بها حجب الزمن، ويترفعون بها عن الواقع المؤلم المحبط.

جاء خباب بن الأرت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو مسند ظهره إلى الكعبة يشكو للرسول التعذيب والألم، وتعلوه نبرة اليأس والملل متسائلًا: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟!!

أما النبي عليه الصلاة والسلام صاحب الرسالة، فيخرق حجب الزمن، ويمتد ببصره إلى الأفق، ويسطر بكلماته صفحات تاريخ لم يأت بعد، ويجيب: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»

هكذا يُصنع التاريخ ويتحول مجراه، وتتغير الأمم، ويتبدل الضعف إلى قوة، والهزيمة إلى نصر، والتيه إلى رشاد.

وكما أن التاريخ لا يصنعه الطغاة، كذلك لا تصنعه السيوف الطائشة، ولا يصنعه المهازيل أصحاب النفس القصير، والنظر الحسير، ولا يصنعه الجالسون بعيدًا في مدرجات المشاهدين، فصناعة التاريخ يلزمها: فكر ورسالة، رؤية وبصيرة، مضاء وعزيمة.

يلزمه رجال «صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلًا»

حتمًا سيزول سيف البطش، وسيأتي سيف الحق وسيعم النور ويتبدد الظلام.

وإن غدًا لناظره قريب.

نعمة الخيال

كان لي زميل، كلما دخلت عليه وهو منفرد بنفسه، أراه عابس الوجه مقطب الجبين، يُصدر أصوات غضب مكتوم خشية أن يسمعه أحد، يلوح بيديه في الهواء كأنه يحارب الأشباح والشياطين.

أسأله: ما بك يافلان؟!

يجيب: أبدًا، مشاكل وخناقات في رأسي، مرة مع مراتي ومرة مع مديرنا فلان...!!!، .

أما العبد لله، فكان منذ الصغر حين يختلي بنفسه حتى وإن كان يسير في الطريق وسط الزحام، يكون سارحًا في أفكاره وخياله، ويظهر على وجهه ابتسامة..كثيرًا ما تقترب إلى الضحك، فكان إخوته في البيت يتعجبون حين يرونه على هذه الحال، ويهرولون نحو الوالدة يقولون لها: الحقي ابنك اتجنن.. بيضحك لوحده.!!

وكان صديق الطفولة ورفيق عمري "مجدي" يراني وأنا أسير وحدي في الشارع على تلك الحال، فيستوقفني بخفة ظله ولطفه ويقول لي: "محمود": إنت ماشي بتضحك لوحدك في الشارع!! الناس ستقول عنك مجنون، إياك أن تسير وحدك في الشارع.!!"

الخيال: هو انعكاس لبياض القلب وسواده، ويقظة الحس وبلادته، ونشاط القريحة وكسلها.

بالخيال تستطيع أن تنتقل إلى عالمك الخاص وتترفع عن واقعك أيًّا كان هذا الواقع.

بالخيال تعيش في النار، وأنت في قصرك المنيف وحدائقك الغناء.

وبالخيال تعيش في الجنة، وأنت في كوخ صغير وكسرة خبز.

أيّها الشاكي الليالي إنَّما الغبطةُ فِكْرَهْ

ربَّما اسْتوطَنَتِ الكوخَ وما في الكوخِ كِسْرَهْ

وخَلَتْ منها القصورُ العالياتُ المُشْمَخِرَّهْ

تلمسُ الغصنَ المُعَرَّى فإذا في الغصنِ نُضْرَهْ

وإذا رفَّتْ على القَفْرِ استوى ماءً وخُضْرَهْ

وإذا مَسَّتْ حصاةً صَقَلَتْها فهيَ دُرَّهْ

لَكَ، ما دامتْ لكَ، الأرضُ وما فوق المَجَرَّهْ

فإذا ضَيَّعْتَها فالكونُ لا يَعْدِلُ ذَرَّهْ

الخيال: هو ابن التفكر والتدبر والخلوة.

وهو الأب للفن والإبداع والاختراع والكشف.

وهو ملكة تربيها مناهج التربية في البيت والمدرسة ومؤسسات الدولة الثقافية.

في زياراتي للمعارض والمتاحف الفنية خارج العالم العربي كنت أشاهد تلاميذ المدارس وهم بصحبة مدرسيهم يعلمونهم كيف يقرؤون اللوحات الفنية ويكتشفون مكنون خيال الفنان.

وأتذكر ما كانت عليه مدارسنا في السابق من اهتمام بحصص التربية

الفنية والموسيقي وحصص تجويد الخط العربي، والتي اندرست معالمها في مدارس اليوم، وأتذكر عالم الخيال الذي كنت أسبح فيه وأنا أستمع من الجدة إلي حدوتة الشاطر حسن، والبساط السحري...

بل إن المذياع كان يثير فينا خيال الأشكال التي نسمع أصواتها، والأحداث التي نسمع حكاياتها.

أما إنسان العصر المسكين، فقد حاصرته مطالب العيش كدًّا وكدحًا، ثم أسلمته في وقت فراغه إلي حصار التكنولوجيا الحديثة.

يجلس في وقت فراغه أمام التلفاز، محاصر من جهاته الأربع بالصوت والصورة، ويترك أولاده نهبًا لهذا الجهاز يقتل فيهم الخيال ويربي فيهم الكسل الفكري.

ولذلك تنظر حولك تتساءل: أين الفنانون والشعراء والمفكرون والفلاسفة؟

وكأن التربة التي كانت تنبتهم قد أجدبت.

أترحم وأنا أكتب هذا المقال على أساتذة لنا على درب الخير، كانوا يأخذوننا في وقت الغروب ووقت الشروق على شواطيء البحر أو في الصحراء، ويتيحون لنا ساعات للتأمل والتفكر والنظر في ملكوت الله وهم يحفزوننا بقوله تعالي:

﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾ (الأعراف: **185**).

يا طالع الشجرة

يا طالع الشجرة.. هات لي معك بقرة.. تحلب وتسقيني.. بالمعلقة الصيني.

موال شعبي من مواطن مسترخٍ تحت ظل شجرة، مشبكًا كفيه خلف قفاه، شاخصًا ببصره لأعلى، حالمًا بشربِ اللبن، متوهمًا صعود البقرة إلى الشجرة، منتظرًا من يصعد الشجرة ليحلب البقرة، ثم يسقيه سقيا «المزمزة والرواقان» بالملعقة.

وليست الملعقة من صنعه أو صنع بلاده!، إنها من هناك.. من البلاد البعيدة.. من الصين.

هل رأيتم وهمًا ممزوجًا بالدعة والكسل أكثر من هذا؟! والأكثر أن ينال استحسان العامة، ويتناقلونه جيلًا عن جيل.!!

الموروث الشعبي من أشعار وأزجال وأمثال وقصص.. هي جزء أصيل من ثقافة الشعب؛ ولذا وجب على كل مفكر ومصلح أن يدقق النظر في هذا الموروث الثقافي الشعبي، لما له من تأثير بالغ في أي حركة للتغيير والإصلاح.

وقبل أن نخرج من هذا النموذج الشعبي ننتقل إلي صدمة أخرى، تمالك أعصابك وأنت تقرأها.

نقلًا عن جريدة المحروسة في عددها 2655 بتاريخ 1917/ 11/ 14 في حفلة عرس لأحد أثرياء مصر حضره نفر من ذوي المقامات والأجانب، أبدع

المغني الراحل «يوسف المنيلاوي» وأطرب، وأخذ سامعوه في استعادته حتى ظل في الدور الواحد نحو «ساعتين» فلحظ ذلك أحد كبراء الأجانب، وسأل جاره المصري عن معنى ما يقوله المغني.

فأجاب: إنه يقول: «حبيبي شوفوه لي يا ناس»!!

فتعجب الأوربي وقال: «ألهذا الحد بلغ به الكسل أن يعهد لسواه كل شيء حتى البحث عن حبيبه!!؟.. وهل الرأي العام يقره على هذا الكسل ويبدي كل هذا الاستحسان.؟»!!

فعلًا، شيء مستنفر جدًّا.

الأديب الراحل «توفيق الحكيم» أنشأ مسرحية «يا طالع الشجرة» من وحي هذا الموال حيث تنتمي مسرحيته إلى مسرح «اللامعقول» الذي يحمل بعض من صفات مسرح «العبث» الذي كان منتشرًا في أوروبا مطلع ومنتصف القرن العشرين.

نعود إلي هذا الداء المتأصل في شريحة من ركاب قطار وطن يحاول التحرك نحو التغيير، فهذه النوعية من الركاب لا أمل لهم في التغيير أصلًا، وحين حركت ثورة يناير عجلات القاطرة، استبشروا بشرب الحليب، ولما صُدموا بأن البقرة لا تصعد الشجرة، .. وأن الطريق للشرب و«المزمزة» يمر عبر استقلال الإرادة وصناعة الدواء وزراعة الغذاء ولا يمر عبر «المعلقة الصيني»، .. عادوا سراعًا إلى القاطرة التي تدور بهم في حركة دائرية كقطارات الأطفال.

الحقيقة التي يهرب منها الناس أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تصبح قوة عظمى إلا على جثث وأشلاء وخراب الحرب الأهلية في سبيل الوحدة.

وأوروبا المتحضرة المزدهرة لم تصبح كذلك إلا عبر ثلاث عقود من

الثورات والثورات المضادة وصولًا لدمار شامل في حربيين عالميتين.

نحن لا نطلب ذلك ولا يتمناه أحد.

ويبقي السؤال: هل الشعوب تتغير؟

اعلم يا عزيزي: أنه ليس هناك جينات متوارثة في شعب من الشعوب، بل هي دورات تقدم وتدهور، فالشعب المصري الذي أنتج هذا الموروث الثقافي في طور التدهور، هو ذاته الذي أقام أعظم صروح البناء في تاريخ البشرية، وهو الذي أعجز العالم حتى الآن بما وصل إليه من طب وفن وعلوم، وهو الذي قاد الأمة الإسلامية في الانتصار علي المغول والصليبيين.

كلنا يا عزيزي نحب أن نعيش في وطن الحرية والرفاه والتقدم.

ولكن..، منا من ينتظر من يصعد الشجرة.. ويأتي بالبقرة.. يحلب ويسقيه.. بالمعلقة الصيني.

ومنا من يغني: «حبيبي شوفوه لي ياناس»

ومنا من يهرب من حقيقة أن النظام الذي تسبب في الجهل والفقر خلال ستة عقود، لن يأتي بالحليب، إلا إذا صعدت البقرة إلي أعلي الشجرة.!!

■■■

وسقط القبقاب في حلة اللبن

اعتاد الجيران على المعارك الطريفة بين «أبو عبد الله» وزوجته أم عبد الله، أما أطرف تلك المعارك فكانت موقعة «القبقاب» يوم سقط القبقاب في حلة اللبن.

وقفت أم عبد الله في المطبخ، أمامها حلة عميقة مستديرة، ملأتها باللبن (الحليب)، ووضعتها على "الوابور" وفي يدها مغرفة خشبية للتقليب.

بدأ اللبن يغلي وهي تقلبه، وتهدئ شعلة النار حتى لا يفور اللبن، وبينما هي منهمكة ومنشغلة ومتوترة، في المرحلة الحرجة من إنجاز العمل، خشية الانشغال؛ فيفور اللبن.

ناداها أبو عبد الله من غرفته.. فلم ترد.. كرر النداء.. ولم ترد.

نهض أبو عبد الله غاضبًا، والتقط القبقاب في رجله مسرعًا، ومضى يقرقع على البلاط، ودخل عليها المطبخ صائحًا: يا ولية أنت انطرشتِ، بنادي عليك مابترديش..

فار الدم في رأس أم عبد الله كما يفور اللبن في الحلة، وردت عليه: وأنت يعني اتعميت! مش شايفني مشغولة بغلي اللبن.

كلمة من أم عبد الله... وكلمة من "أبو عبد الله".

قام أبو عبد الله خالع القبقاب، وبشجاعة عنترة، وخفة قُنبُرة خلع القبقاب، وصوبه بمهارة نحو أم عبد الله.

انتبهت أم عبد الله انتباهة "جورج بوش" لحذاء الصحفي العراقي "منتظر الزيدي"، وبسرعة فائقة، ومهارة حاذقة، حركت رأسها، ومالت بجذعها فتفادت قذيفة "أبو عبد الله."

وليتها ما فعلت..

فقد سقط القبقاب في حلة اللبن.!!

تسمر أبو عبد الله في مكانه، وانعقد لسانه.

وأم عبد الله تصرخ وتولول.. يا ميلة بختك دون النسوان يا أم عبد الله، يا قلة حظك.. يا خسارة وقفتك في المطبخ..

انفك لسان "أبو عبد الله" وصاح..

عندك حق يا ولية، يا ريت القبقاب كان فتح دماغك، ولا نَزَل في حلة اللبن.

أم عبد الله عَزّت عليها نفسها..

إخص عليك يا راجل، كل اللي همك اللبن؟!

كلمة من "أبو عبد الله".. كلمة من أم عبد الله..

قامت أم عبد الله منطلقة انطلاقة السهم نحو غرفة النوم، وبسرعة البرق خطفت لوح من "مُلة" السرير- لوح خشب بونطي سُمك 2 بوصة-، وباغتت "أبو عبد الله"، ثم هوت به على أم رأسه..

هوى أبو عبد الله كما يهوي الطَود، وسقط كجُلْمود صخرٍ حطه السيل من علٍ.

أم عبد الله أصابها الهلع.. انحنت عند رأسه..

إيه يا راجل.. اصحى يا راجل، فداك حلة اللبن.

طالت غيبوبته، فتحت باب الشقة، ووقفت تولول الحقوني يا ناس، يا أم عبده.. يا أم مشمش.. يا أم محمود...

تداعت الجيران هذا يكسر بصلة ويقربها من أنف "أبو عبد الله"، ذاك يملأ سطلًا من الماء يصبه على رأسه.

أفاق أبو عبد الله.. وَجد أم عبد الله عند رأسه..

نظر إليها بمسكنة.. ليه كده يا ولية، كل ده عشان حلة اللبن؟!

فردت أم عبد الله: فداك يا أبو عبد الله ميت حلة لبن.

ده أنا عايشة من خيرك.. ولا أقدر أعيش من غيرك.!

وبخجل ودلال، أشاح أبو عبد الله برأسه، وألصق خده بالبلاط..

فغمزته أم عبد الله..

خلاص بقه يا راجل.. ده أنت طول عمرك قلبك أبيض مثل اللبن.

الجيران: خلاص بقى يا أبو عبد الله المهم أن أنت بخير.. قوم من الأرض وشد حيلك.. أهي ضربة وعدت بسلام.

لكن...

إوعى تزَعَّل أم عبد الله تاني.

■■■

فهرس المحتويات

إبداعات الفن الإسلامي

ثانيـًا: السياسة والاجتماع

ثالثًا : ثقافة وفكر